تياترو ثرفنطيس

رواية

دار العين للنشر

GRAND
TEATRO CERVANTES

نسيمة الراوي

تياترو ثرفنطيس

تياترو ثرفنطيس

رواية

نسيمة الراوي

الطبعة الأولى/ ١٤٣٨هـ، ٢٠١٧م

حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر

٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥ ، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E-mail: elainpublishing@gmail.com

· الهيئة الاستشارية للدار

أ.د. أحمد شوقي

أ. خالد فهمي

أ.د. فتح الله الشيخ

أ.د. فيصل يونس

أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام

د. فاطمة البودي

الغلاف: فرانكشتاين

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٧٣٢٢ /٢٠١٦

I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 419 - 6

تياترو ثرفنطيس

روايـــة

نسيمة الراوي

دار العين للنشر

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

الراوي، نسيمة

تياترو ثرفنطيس: رواية/ نسيمة الراوي.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٧

ص؛ سم.

تدمك: ٦ ٤١٩ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية.

أ- العنوان

رقم الإيداع/ ٢٧٣٢٢ / ٢٠١٦

ساحة الأصوات

قطرات رذاذ واهنة تنزلق على زجاج النافذة، أتابع انعراجاتها المتموجة، وهي ترســم أخاديد في بقايا وجهي المنعكس في زجاج النافــذة، أتأمله مليا لعلي أقتنــص بقايا صور من ضباب عالقة في ذاكرتي الصدئة.. أصحو من ســفري في أســئلتي.. خواء يلفني، وضجيج يصافح أذني بعنف.

يدي التي لا تطاوعني على مسح تفاصيل وجهي المشتت في زجاج النافذة، ترتجف، ترتعش، هل المحو مخيف إلى حد الألم؟ أسائل وجهي الذي عاد من جديد ليذكرني بغموضي، أنا الحائرة المشككة في وجودي، في انتمائي إلى هذه المدينة بدروبها المظلمة..

بخطى وئيدة أتوجه إلى الصالون، أشغل التلفاز، حيوات تنطفئ وأخرى تشتعل، أتابع الصور غير عابئة بما يقع. أنسحب من الصالون، أقصد غرفتي، أعاين الفوضى المنتشرة فيها ولا أكترث، أرتدي سروال الجينز الأزرق الذي يذكرني بالبحر، وقميصا بنفسجيا لا يعكس

حسنه حالتي النفسية التي تميل في أغلب الأحيان إلى الكآبة..

أخرج من الشقة فرارا من فكرة المحو، أنزل من البناية، وأنا أحاول عبثا انتزاع فكرة المحو من رأسي العنيد. أفكر في الاتصال بكريم؛ فهو الوحيد القادر على انتشالي من هذا الخوف الذي يعشش في أعماقي، خوف يسكن ذاكرتي، يسيطر على ذكرياتي، يشوه حاضري، كم تمنيت أن أتغير لأصير أنثى بسيطة بذاكرة خفيفة لا يثقلها يومها سوى حمل أكياس التسوق.

أسير في شارع "البولفار" غير مبالية بضجيج السيارات، والباعة المتجولين والمتسكعين، أتوجه إلى مخدع هاتفي أمام مقهى "باريس"، أرنو بنظري صوب الزاوية المحاذية لـ"شارع الحرية"، الشارع الذي يفصل طنجة الحديثة عن طنجة القديمة التي تحاول دون جدوى أن تحتمي بأسوارها من ظاهرة التحول، والمحو الذي طال كل شيء: قاعات السينما التي أغلقت أبوابها إلى الأبد، وتحولت مداخلها إلى حاويات للنفايات، المقابر التي صارت سكنا لمن لا مسكن له.. الأفارقة الحالمون بنقطة ضوء تمكنهم من الانسلال نحو غد مغاير، وجوه عمال متعبة، الأمكنة والأقنعة المتصارعة مع الزمن الذي لا يعبأ بتشوهها.

ألج المخدع الهاتفي، ألقي التحية على صاحبه، أسحب ورقة نقدية من جيب حقيبتي، أشتري بطاقة جوال، أركبها وأتصل بكريم، صوت

المرأة على المجيب الآلي يخبرني أن كريم لم يعد هنا.. إنه هناك في نقطة مجهولة يتمركز على ذاته.. أترك السماعة تسقط من يدي، أسقط معها، كل شيء كان في مخيلتي مرتبا على زمن كريم الذي يتساقط مثل ورق ميت.. فجأة، ومن دون أن أكون أنا أنا، وجدتني في الشارع أمشي بسرعة، وكأنني أهرب من فراغ يكبر فيَّ.. يخنقني.. ألتقط كل ما تقع عليه عيناي، وكأنني أراه لأول مرة..

البحر يتأوه وراء "سور المعجازين" على حال هذه المدينة الغريقة.. أصل إلى "ساحة الأمم" مرورا بـ"البولفار" أقف للحظات، أتخيل هذه الساحة وهي تغلق أذنيها المتعبتين، وكأنها تتجنب الأصوات المنادية بالحرية، وأصوات أخرى متضامنة مع فلسطين، وأصوات تندد باغتصاب القاصرين، وصوت موسيقى الجاز، ومارسيل خليفة، وأميمة الخليل، والأغنيات الأمازيغية، والطقطوقة الجبلية، والهيب هوب.. هي ساحة المدينة التي تتفجر فيها الأمواج، يحيا فيها الأموات والأشباح والأحياء، لا يمتلكون سوى أصواتهم.. هي ساحة الأصوات لا "ساحة الأمم".

أرى حشدا من الناس يتجمهرون في الجهة المقابلة لمكان وقوفي. أقرر الاقتراب لأقرأ اللافتات التي يحملونها، والأخرى التي ألصقوها على النخيل القابع في جوانب الساحة.. أجول بعينيَ من لافتة إلى أخرى، وأقرأ بصوت خفيض يغالبه شجن ما:

"أنا ولد البحار قوت يومي في خطر".

كُتب الشعار بطبشور أحمر على سبورة مدرسية.. حملها طفل شاحب في الخامسة من عمره تقريبا، يبدو من عينيه المحملقتين في ذهول أنه لا يفهم شيئا مما يدور حوله..لا يعرف سوى أنه لن يستطيع الحصول على ملابس جديدة، أو الذهاب إلى مدينة الملاهي هذا العيد؛ لهذا هو هنا بين هذه الحشود المحتجة.. لافتة أخرى ألصقت فوقها صفحة مقتطفة من إحدى اليوميات، لم أستطع أن أرى منها سوى العناوين بسبب الطول الفارع لحاملها، وصغر خط الحروف التي كتبت بها المقالات، كلها كانت تندد بالسوء الذي يعاني منه البحر قبل البشر،استفزتني دمية لها هيئة صياد كان الحبل يلتف على عنقها، مثل أي ظل بائس أريد له أن يكون تجسيدا لوضع ميؤوس منه.. تعالت الأصوات، حناجر لم تجد غير حبالها تخرجها كي ينتبه إلى بؤسها: رجال، ونساء، وأطفال، يتناوبون على الصراخ، مكبر الصوت الوحيد لم يكن كافيا.. أنسل من بين هذه الأصوات مثلما تنسل خيوط الشمس من زرقة البحر عند المغيب هربا من ظلام ما حل بداخلي.. لا شك أن بحارة طنجة قد يئسوا من اليأس نفسه، وأتعبهم أن تختفي أسماء السمك، وتاريخها من ذاكرتهم، كما اختفى أبناؤهم حين كبروا تاركين لهم ذكريات قديمة ينامون عليها، وهم يفكرون في عودتهم ذات يوم من وراء البحر.

البحر يتأوه هذه المرة وراء الأسوار القصيرة لـ"لبلايا".. قبالة مقاعد خشبية، وباعة الفول السوداني، والحمص، وناقشات الحناء، والفنادق الفاخرة، ومطاعم السمك، والملاهي الليلية، وبائعات الهوى، وصائدي الأحلام المؤجلة.. أطل على الأمواج المتلاطمة، بعضها يغيب في الرمل ليظهر بعضٌ آخر أكثر بلاهة، أنتشي بالمشهد؛ أراقب النوارس تحوم فوق الزرقة الملتبسة لعلي أتخلص من مشهد الدمية- البحار التي علقت ملامحها في ذهني.. ليست المرة الأولى التي أجدني فيها وجها لوجه أمام الموت.. دوما أتلافى ملاحقته لأتخيل ولادات متكررة لي.. أنزل السلم المفضي إلى التيراس السفلي للكورنيش. أدخل إلى مقهى صغير، أثاثه: طاولات مربعة الشكل، مغطاة بشراشف بيضاء، وضعت عليها مزهريات طينية فارغة مطلية باللون الأزرق الداكن، وحول كل طاولة أربعة كراسٍ خشبية متناسقة مع لون المزهريات. أجلس على طاولة قبالة شرفة تتخذ شكل نافذة كبيرة.. المزهريات الفارغة ليست حيادية، يفوح منها عطر الذاكرة، العطر الذي يجعل زوار المقهى يشمون روائحهم. يتذكرون حكاياهم التي خلفوها في هذا المقهى، قبالتي نوافذ مغطاة بستائر بيضاء تتخللها تموجات زرقاء مُشكِّلة ما يشبه البحر.

البحر الافتراضي على الستائر المزاحة قليلا عن النوافذ، يترك لي فرصة مشاهدة البحر دون أن يحرمني شهوة التلصص؛ يشبه في ذلك الأبواب غير المفتوحة وغير الموصدة تماما.. أطلب شايا

بالنعناع، أُخرج قداحتي الخضراء الأثيرة، وعلبة سجائر من نوع جيتان، لا أعرف لماذا أفضل هذا النوع بالذات؛ ربما بسبب صورة العلبة: فتاة غجرية ترقص وسط غيمة بيضاء؛ الفتاة تشبهني منذ زمن بعيد؛ منذ أن كنت فكرة بيضاء حلقت كنورس صغير في رأس أبي، حين أخبرته أمي عن رغبتها في أن يكون لها طفل منه، ودون تفكير قال: أحلام، أحلام.. هو اسم طفلتنا.. حدث ذلك قبل زواجهما بسنتين، من دون تفكير رددت أمي: أحلام، أحلام.. هو اسم طفلتنا. منذ ذلك الحين، وأنا أرقص وسط الغيوم، أسقط كلما وقعت غيمة.. منذ ذلك الحين وأنا أحلام.. هل كان أبي يعلم عندما حمَّلني عبء هذا الاسم أنه سيكون أولَ من أحلم به؟ هل كان يعلم أن صوره التي تملأ الأدراج وجدران البيت ستصير متحركة في أحلامي؟

كانت أحلامي تترجم الضياع الذي شعرت به، وأنا أفتش عنه في صوره، وأتفرس ملامحه.. أحفظها.. أدقق في التفاصيل التي تحملها الصور.. أستيقظ سعيدة من كوابيسي.. سعيدة برفقته.. يأخذني إلى المدرسة حاملا حقيبتي المدرسية في يده اليمنى، ماسكا يدي بيده اليسرى كما يفعل جدي. يراجع معي الدروس، يساعدني في القيام بواجباتي المدرسية كما تفعل أمي، يأخذني إلى أمكنة لم أرها إلا في تلك الأحلام.. كم كانت سعادتي ستكبر لو تسلل من الحلم ليملأ هذا الفراغ..

الحياة مع أمي صعبة. رغم حنانها الزائد، واهتمامها بتفاصيل حياتي. تبكي كل يوم على الرغم من حرصها على إخفاء ذلك، إلا أنني ألاحظ عيونها المتورمة، أسمع شهقاتها في الليل، تتسرب من وراء باب غرفة نومها المقابلة لغرفة نومي. لم أكن أسأل عن السبب، ما كانت تحكيه عن علاقة حبها بأبي كاف لأعرف حجم الألم الذي تعيشه، وحجم افتقادها له.

عندما تزوجا كانا ما يزالان طالبين في آخر سنة لهما بالجامعة، يعيشـــان بالمنحة الجامعية فقط. وجدت أمي عملا فور انتهائها من الدراسة، وحصولها على دبلوم الدراسات العليا في الأدب الإنجليزي، بينما فشل أبي في العثور على عمل؛ فتفرغ لنشاطاته الحقوقية، يدافع عن العمـــال والمعتقلين، يطالب بالعدالة، ويناضل من أجل الحرية والمســـاواة، ويندد بالقمع، صوت أبي ظـــل يعكر مزاج المخزن، نتيجة ذلـــك اعتقل في اليوم الذي ولدت فيـــه: يوم 13 من فبراير ســـنة 1978. لذلك لا أحب الاحتفال بعيد ميلادي، خصوصا بعدما قرأت مقالا مصادفة فـــي مجلة تعودت على اقتنائها "بعض الناس في أوروبا، وبخاصة في إيطاليا لا يشـــترون ولا يكترون البيوت التي تحمل أبوابها رقم 13، ولا الشقق التي تقع في الطابق رقم 13، ولا يلبسون الأقمصة الرياضية التي كتب عليها رقم 13، ويسعون جاهدين إلى تفادي المرور من الشوارع التي كتب عليها رقم 13.." هكذا يقول المقال. لو لم أولد يوم 13 لما اعتقل أبي.. أســـحب نفسا

عميقـــا، أنفث بقايا الدخان لتطير هذه الجملة الأخيرة معه.. لا أريد أن أتذكـــر أعياد ميلادي، وتحديدا عيد ميلادي الثامن الذي صادف الذكرى الثامنة لاعتقال أبي، يومها اكتشفت مصادفة لعنة 13، اليوم الذي يخلد ذكرى ولادتي، اليوم الذي اعتقل فيه والدي، اليوم الذي أجلـــت فيه طفولتي، اليوم الذي اغتصبـــت فيه من حقي في حنان الرجل القابع وراء القضبان، اليوم الذي يذكرني بنقصي..

في طريق العودة من المدرسة تخيلت حجم الهدايا التي ستقدم إلي، تخيلت العروس التي وعدتني بها أمي، تخيلت نفسي أما تلقم طفلتها الحنان.. ما إن ولجت شقتنا داهمني حشد هائل من الزوار يجلس بعضهم في الصالون، وبعضهم الآخر يجلس وسط الدار، بابتسامة خجولة انسحبت من الحشد وعيونهم تترصدني، أوقفتني امرأة أربعينية قبلتني ومنحتني قطعة شوكولاه، شكرتها وأكملت المسير. في غرفة نومي فكرت في الضيوف الذين لم يسبق أن رأيت وجوههم، خمنت أنهم ربما جاؤوا لاقتسام شمعة الميلاد معي، في بادئ الأمر استفسرت أمي عن زوارها، حاولت أن تشرح لي، لكن أنفي الصغير كان قادرا على شم عطر الكذب، انزويت في أريكتي أفكر في أمر الزوار، ربما يحضرون لي مفاجأة، تظاهرت بالاقتناع والتسليم بما قالته أمي وإن لم يكن حقيقيا، أوهمتها أنني سأعزف مقطوعة على "البيانو"، بعدما تأكدت من خروجها، اختلست السمع، حاولت جاهدة أن أتبين الأصوات، أن أميز الجمل.. أريد تلك الهدايا

التي يخفونها، أريد الاطلاع على المفاجأة، تحمست لأرى الصالون وهو مزين بالشموع، والخيوط اللامعة، والبالونات متنوعة الأحجام.. جهزت حواسي لأعيش happy birthday المكتوبة بلون أحمر على ورق أبيض كبير، ومثبتة على الحائط بواسطة لصاق السكوتش، كما كنت قد رأيت في فيلم أمريكي دخلت فيه البطلة إلى البيت، وإذا بها تجد ضيوفا يغنون:

Happy birthday to you

Happy birthday to you

Happy birthday to you to alice

Happy birthday to you

هيأت أذني لسماع ذلك، طوعت فمي على ابتسامة خجولة، مرنت حواسي على كل شيء، فقط أنتظر المفاجأة.. في اللحظة التي كنت أشيد عالمي الصغير، أصنعه من رمل الشاطئ، ارتفع موج هادر ودون سابق إنذار أجهز على أحلامي البسيطة.. كانت جارتنا مريم تواسي أمي في محنتها، فالضيوف فاعلون حقوقيون جاؤوا من أجل التضامن مع أمي. في الذكرى الثامنة لاعتقال زوجها الرفيق العربي، كانوا يكررون الرفيق العربي.. الرفيق العربي، وهم يتحدثون؛ فعرفت فورا أنهم يقصدون أبي لأني لم أعرف له اسما غير هذا، ولم يسبق لي أن ناديته بأبي سوى في أحلامي..

لستُ أَلِيس

أنا أحق أن أكون أَلِيس

تستوطنني العجائب دون أن أعرف بَاباً لهَا.

أردد في نفسي، أشعل سيجارة ثانية، أعب نفسا عميقا، تتكون غمامة داخلي، أنفث الدخان أتابع سرابه المتوجه صوب البحر.. الغجرية على العلبة مازالت ترقص وسط الغيم، وأنا أراقب دخان سيجارتي، أحاول تغيير مساره جهة الكورنيش، يأبى أن يعانق الموج، أنفث الدخان.. أنفث الغجرية بعيدا لا أريد أن أشبهها بعد الآن لا أريد أن أحلم.. أريد فقط أن أفهم.

بعد مرور عيد ميلادي الثامن بسنتين؛ أي عندما بلغت العاشرة من عمري، لم أعد أرى أبي مرتديا ملابسه التي شاهدتها في الصور، بل صرت أراه بجناحين يطير؛ لأن جدي أخبرني أنه أصبح هناك مشيرا بسبابته اليمنى إلى السماء، كان يمسك بيده اليمنى حقيبتي المدرسية، وبيده اليسرى يمسك يدي. لم أعد أسمع شهقات أمي في الليل، ربما بدأت تنسى، أو سلمت نفسها للقدر، أو كتمت بكاءها حتى لا أتألم؛ فعيناها المتورمتان تفضحان عذاباتها الليلية. لم أعد أسمعها بتاتا لأني كنت أطير مع أبي.. عرفت فيما بعد أنه مات جراء إضرابه عن الطعام، يطالب فيه بمحاكمة عادلة، أبي حلق بعيدا دون أن يقبض على جذوة أحلامه المشتعلة.. الجذوة لم تنطفئ، بل حملتها

بين يدي، ورحت أتلهى بها في ليالي الخريف الطويلة.. تضامنا مع أحلام أبي، توقفت عن الأكل، صرت أمنح خبزي الصباحي للحمام؛ علّه يعيرني أجنحته لأطير، وأعطي لأصدقائي السندويشات التي تعدها أمي كي آخذها معي إلى المدرسة لأصير كما صار أبي خفيفة.. في يوم ما وبينما أنا في ساحة المدرسة، ألعب لعبة "الغُمَّيْضَة" مع أصدقائي، أحسست أن الساحة تدور بي.. تدور.. تدور.. وضعت كلتيْ يديَّ على رأسي ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أدور.. أدور في مكتب المدير، وأمي تجلس في الكرسي المقابل للأريكة التي مددوني عليها.. أخذتني أمي إلى الطبيب. لم أعد أذكر من ذلك اليوم سوى مرارة طعم الأدوية، وتوبيخ أمي لي حين أخبرها الطبيب أن ما حصل لي كان بسبب سوء التغذية. وبختني بشدة، وبكيت بحرقة.. أطلقت شهقات تشبه شهقاتها الليلية، وردَّدْتُ:

أريد أن أطير.. أن أطير مع أبي..

منذ ذلك اليوم، وطعم المرارة لا يفارق لساني، يزداد اصفرارا كلما اختفت أجنحتي. الأحلام الوردية ودعتني، أذكر فقط الظلام الذي يتصاعد من ليل بهيم، كلما استيقظت من رعب ذقت مرارته.. حتى سئمت النوم لأنه يجعلني دون أجنحة.. أنفث دخان السيجارة التاسعة من علبة جيتان، عفوا السيجارة السابعة؛ لأني تعودت ألا أحتسب السيجارة الأولى والثالثة، لأنهما تذكرانني بتعاستي المنبعثة

من تركيبهما، أتحاشى دائما رقم 13، أمقته، فبمجرد ما أن أفتح علبة السجائر؛ أكسر السيجارة الأولى، أشعل السيجارة الثانية التي تصير الأولى، الشيء نفسه أفعله مع السيجارة الثالثة.

"أحبك جدًا، وأعرف أن الطريق إلى المستحيل طويل

وأعرف أنك ست النساء، وليس لدي بديل

أحبك جدًا، وأعرف أن زمان الحنين انتهى، ومات الكلام الجميل"

يرتفع صوت كاظم الساهر عبر المذياع؛ أو هكذا خُيِّلَ لي. يذكرني هذا الصوت بكريم يوم كنا على متن سيارته قادمين من بحر "أشقار" بعد احتفالنا بمرور السنة الرابعة على صداقتنا، أتذكر لحظة لقائنا مصادفة، عندما كان يعمل في جمعية حقوقية بالموازاة مع عمله محاميا بطنجة. حدث ذلك ربيع سنة 2002 بعد أشهر من خروجي من تجربة حب قاسية، كادت تجهز على روحي، فالذكر الذي عشقته حتى النخاع، لم يكن رجلا مكتملا، يحتاج دائما أن يصرخ ليوهمني أنه رجل ناضج، لم أكن أبالي بالتفاصيل الدقيقة، فلطالما اكتويت بنيرانه المحرقة، لطالما حولني إلى تلميذة نجيبة تتقن درس الحب، الرجل الذي أحببته مدة ست سنوات، طعنني مرات كثيرة، سيختار السفر بعدما أقنعني بجدواه، عرفت أن دموعي التي سقيت بها ورودي الميتة، لن تتوقف، وسأظل ألهث وراء سرابه لأوقن أن طائري لن يعود.. نكاية فيه سأدمر جسدي...

كنت قد حلقت بعيدا عن جزيرته المريضة.. امضيت شهورا وانا حاول فهم ذاتي، أعيد إنتاج تلك اللحظات التي جمعتني بذكري، مم خسارتي لأولد من جديد، وقبل ان تنهار أسواري لاح طيف كريم" ليبارك هزيمتي.. كان تعارفنا تلقائيا جدا وسريعا، تبادلنا رقام هاتفينا، صرنا نتواصل، نلتقي كل يوم، انتظره "بمقهى حافة" المكان الذي كنت أطيل الجلوس فيه إلى أن يلتحق بي ي المساء بعد أن ينتهي من عمله، نشرب الشاي، ندخن، نأكل لبيصارة والزيتون الأخضر، أقرأ عليه قصائدي الجديدة، أما هو فيخبرني عن آخر الجرائم التي تجعل العالم يكون كما هو، مزيجا من ملامح الخطيئة والضعف الإنساني..

بعد سنوات من تعارفنا، أحضر كريم بيتزا بدلا من الكعكة؛ لأنه يعلم أني أكره أعياد الميلاد، وصلنا الى "مقهى الصول" أخرج كريم البيتزا من صندوق السيارة، ووضعها على طاولة مطلة على "بحر أشقار" بعد أن صعدنا السلالم القليلة المؤدية إلى تيراس المقهى، ودون أن يسألني، طلب من النادل إحضار كوبين من عصير الأناناس؛ العصير المفضل لدي، فتح العلبة الكرتونية، أخرج البيتزا، وضعها في صحن كان قد طلبه من النادل، أشعل شمعة بقداحته الخضراء، غرسها وسط البيتزا بعد أن حفر حفرة صغيرة في الوسط، تناول صلصة الطماطم ورسم قلبين متداخلين يحدان بالحرفين الأولين من اسمينا.

أقول في إحدى قصائدي:

الوريقات موت يعلق أجساده في دواليب المدينة

الخريف مدينة تقوم بأعمالها المنزلية

تفرغ دواليبها من الموت.

لذلك كان يفضل اللون الأخضر؛ هذا اللون بالنسبة إليه الأمل في أن أشبه يوما ما المدينة، وأفرغ دواليبي من حب مات.. أشعل شمعة الحب الخفي لنطفأ شمعة حب مات.. هكذا هي الصداقات في مدينتي لا تخلو من الحب؛ حب خفي يرتدي قناع الصداقة.. لكني كنت أستمتع بهذا الحب الخفي وأترك مسافة فارغة قابلة للتأويل، تلك المشاعر تعوض غياب علاقة حب مكتملة عن حياتي، وكنت كمن يوقد النار في المدفأة لكي يستمتع بدفئها دون أن يعرض جلده للحرق. في ذلك اليوم، وبعد غروب شمس "بحر أشقار" في تيراس "مقهى الصول" دفعنا ثمن العصير، ودريهمات للنادل الذي أهدانا موسيقى تركية صامتة. خرجنا من المقهى، ركبنا السيارة، وضع حزام السلامة، وساعدني في وضع حزام سلامتي، اختار بعناية شريط الحب المستحيل، اختار بعناية أكبر هذه الأغنية. كان رأسي يوجعني يومها، قال لي:

"الأصوات الجميلة لا تسبب أوجاعا في الرأس لكنها تسبب أوجاعا في الذاكرة"

أحبك جدًا،

وأعرف أن الطريق إلى المستحيل طويل،

وأعرف أنك ست النساء،

وليس لدي بديل،

وأعرف أن زمان الحنين انتهى،

ومات الكلام الجميل

أحبك جدًا

صوت كاظم الساهر يرتفع، وكلما ضغط بلهجته العراقية على حرف الجيم في كلمة جدا؛ ارتعش جسدي، ثم انطفأ، سرعان ما خيمت ظلال الذكرى التي مازالت تسكنني، على الرغم من المسافة التي حققتها بالابتعاد عن زمن الخسارات. "كريم" يقلد صوت "كاظم الساهر"، ربما لا يدري حجم الأسئلة الكبيرة التي تنمو في ذاكرتي المثقلة بالعذاب.. أجهد نفسي كي لا أتذكر السنوات العجاف، أدعوها كي تقتنص من الحياة لحظات الأمل، أستمع إلى جيم كريم وهو يضغط عليه بقوة، أبتسم، أشرح صدري، أتنفس بعمق رائحة العطر المنبعثة من صوت كريم، هو العطر نفسه يتضوع من المزهريات الفارغة.. امتزج صوت كاظم الساهر بصوت كريم.. بصوت الدمية- البحار التي كانت تقول كل شيء من دون أن تتكلم، وهي التي تجسم الموت

الحق.. كان وقتها كل شيء له عطر المزهريات الفارغة كفراغي من أبوة متخيلة عوضتُها بحكايات جدي، وعشق المكان. أشعل سيجارة جديدة، أسحب نفسا عميقا، أقمع الدخان داخلي، أحس بخدر خفيف يموج في ذاكرتي، سرعان ما أطرد الدخان دفعة واحدة، ينتشر في الهواء بشكل مريب، أراقب طائر نورس متعب الجناحين يخونه حياد السماء، كما يخونني حياد الأشياء من حولي، أحلم أن أصير سماء أخرى لنوارس أخرى.. لكن الأصوات من رأسي تأبى أن تخلد إلى الراحة.

Grand Teatro Cervantes

المشـــهد البحري ما زال هنا، بيني وبينه الأغنيات الحزينة، لا تكف الذكريات عـــن التدفق متعبة مثل روحـــي المثقلة بالخواء.. اليأس يؤرقني.. ينحدر من قمة رأسي إلى أصابع قدمي.. يمشي في عروقي وكأنها قنوات لنهر آســـن لا يصب في أي بحر، كتب عليه أن يستعمر كياني العليل.. إحساس مركب يصعب تفسيره وتسميته، يضغط بشكل متموج في مسامي، كم أحتاج لإبرة رقيقة تحدث ثقبا غائرا في روحي حتى أتخفف قليلا من ذاكرتي المتكلسة، ما أستغربه كثيرا أني حينما أختلي بنفسي أحس بالمتعة، متعة مجروحة تشبه زجاج نافذة المقهى الذي يحجب جزءا كبيرا من معاينتي للموج وهو ينهي دورته على ساحل طنجة، كم تعذبني حالتي المعقدة؟ كم تمتعني حالة انهيار أسواري؟ هل أنا بحاجة لملاح قوي يقودني إلى الضفة الأخرى؟ أو ربما أنا بحاجة لرجل إطفاء يخمد بعضا من نيراني.

لماذا أميل دائما إلى هذه الحالة التي يختلط فيها التعب، والأرق، والوجع، والذكرى.. هل أنا مازوشـــية إلى هـــذا الحد؟ ربما، لكن

المازوشية هي امرأة تتلذذ بإيذاء نفسها، غالبا ما يكون الأذى مقصودا لذاته ومستحبا، أتخيل امرأة تلبس تنورة سوداء وقميصا أسود يكشف عنقها وظهرها وذراعيها، تغطي عينيها بنظارة مصنوعة من ثوب حريري تحجب رؤيتها، تحرص أن تقدم نفسها قربانا لجلادها الذي يطعمها صنوف العذاب بسوطه المطاطي، وهي تتأوه منتشية بالألم، من هو جلادي يا ترى؟ جـــلادي ذاكرتي المثقلة بالألم. ألم التذكر والاسترجاع، تذكر من غابوا، وانمحت معهم حكاياتهم الصغيرة تلك الحكايات التي نحمل بعضا من تفاصيلها، نستحضر خيالاتنا لنتألم ونتعب. ما يحصل معي اليوم، هـــوَ ما حصل للطلبة اللاجئين في هولاندا وأستاذتهم في رواية "موطن الألم" لدوبرافسكا أوغاريسك. أنا اليوم أتألم مثلما كانوا يتألمون حين أرادوا استرجاع لغتهم المفقودة، ووطنهم المفقود "يوغوسلافيا". لغتي أضعتها في الكورنيش مرارا حينما عجزت عن وصف فاجعتي، ومعها ضاع الوطن، حلق عاليا في الســـماء، وأنا كالبلهاء أتابعه وهـــو يمعن في الغياب.. ربما آن الأوان أن أخفـــف من ثقل ذاكرتـــي.. آن الأوان أن أنفجر لتنفجر عذاباتي.. آن الأوان لكي أســـتعيد لغتي البكماء.. آن الأوان لأكون أنا من جديد: أحلام.

أشعل سيجارة أخرى، تتغرس نظراتي في عمق البحر، أتخيلني عروسه، أبتسم للفكرة التي داهمتني، تذكرت حكاية جدي التي كان يحكيها لي عن حورية البحر.. لطالما شبهني بها، لكنني أحلام بنت

الرفيق العربي، ولست ابنة البحر.. ربما أشبه أمواجه المتلاطمة على اليابسة مثل غريق يستنجد بغريق..

المشهد البحري.. الأغنية الحزينة.. صوت جدي يتدفق.. أستعيده، أستعيد الحكاية.. لا أعرف لماذا كلما تذكرته عادت بي ذاكرتي إلى ذلك اليوم تحديدا، وكأنها شريط، أضغط على زر play، فتبدأ الأغنية الأولى. هل كان ذلك اليوم هو بداية لشريط ذاكرتي؟ ما أتذكره من الأشياء الأخرى قبله؛ هو ما حكاه لي، أو حكيته لنفسي، فصار جزءا من ذاكرتي. لم يكن العيد الوحيد الذي قضيناه معا، لكنه كان اليوم الأول الذي فتح لي فيه أبواب ذاكرته لأعبرها، فيما بعد على بساط سحري يسافر بي في ذاكرته التي أصبحت ذاكرتي.

أفتح علبة جيتان أخرى، وأكسر السيجارة الأولى، أضع الثانية في فمي، أشعلها بقداحتي الخضراء، وأنفث الدخان.. أشم رائحته التي تجعلني أبدو قوية. أعود إلى صباح يوم العيد الأول بعد تحليق أبي في سمائه التي لا تشبه سماءنا. جدي يطرق باب غرفتي ويعانقني. يخرج ورقة نقدية من فئة خمسين درهم من جيب جلبابه الصوفي الأبيض. "مبروك العيد". مبروك العيد جدي. أضع الورقة النقدية في حصّالتي التي أدخر فيها النقود؛ أفكر في شراء عصفورين كبيرين، وعصفور ثالث صغير، وقفص، أضعها فيه، ولا أحكم إغلاقه كي لا تطير العصافير بعيدا. تخرج.. تحلق بحرية ثم تعود إلى بيتها في

المساء. أتأمل هذا المشهد وأبتسم، جدي يعيدني إلى عالمه، يستفسر عن شرودي، أكتفي باصطناع ابتسامة ماكرة. أتوجه مع جدي إلى الصالون، أمي منهمكة في إعداد مائدة العيد، تزيح المنديل المطرز عن الأطباق والصينية النحاسية التي وُضِعَ فوقها إبريق الشاى، والأكواب الزجاجية المزخرفة بالأصفر الذهبي. ألاحظ غياب المائدة التي عهدتها في مثل هذه المناسبات: طبق الرغيف المقلي المحشو باللوز والمغطس في العسل، وطبق الحلويات المنزلية؛ الحلويات المصنوعة من الشكولاتة، والفول السوداني، واللوز، والعسل، وكعك بطعم السمسم، وبعض المكسرات.. تلك الأصناف التي تعودت أن تكون الأطباق المنتشرة في مائدتنا احتفاء بالعيد. مائدتنا الجديدة تقتصر على كيك، وكرواسون بالشكولاه، وبسكويت. تأكدت أن مائدة العيد هي من صنع خباز حينا، فأنا أعرف كل الأصناف التجارية التي يتفنن في صنعها دون أن تحمل مذاقا لذيذا، فلطالما كرهت أمي تلك الحلويات التي تبيعها المخبزة، كيف إذن تتنازل أمي عن موقفها وتقتني منه ما تكرهه، هي المتشبثة بمواقفها التي لا تتنازل عنها. ألاحظ ذلك ولا أسأل، أكتفي بالنظر والتفكير، أحاول أن أفهم.. تصب أمي الشاي، أرى عينيها المتورمتين من وراء الإبريق النحاسي الكبير الذي يتسع من الأسفل متخذا شكل كمان؛ الأرجل الأربعة للإبريق توحي بأنه سيقفز مما يجعله أقرب إلى أن يكون ضفدعة. عينا أمي المتورمتان وراء الضفدعة، جعلتني أشعر أن تلك الضفدعة تقفز

من بركة دموع داخل عينيها، تقفز الضفدعة داخل كأس جدي الذي كان يجلس جنب أمي ثم إلى كأسي، ثم تعود لتستقر فوق الصينية النحاسية، ليبقى كأس أمي فارغا، تدعي أنها سبقتنا إلى تناول الفطور مما أثار استغرابي، وعمق حيرتي. فليس من عاداتنا أن نفترق يوم العيد، هي اللحظة الوحيدة التي لا يمكن أن ندعها تمر ببساطة لهذا نحرص على الاجتماع والأكل سوية، وتبادل الحديث.. يفرغ كأسي بسرعة. تنط الضفدعة من بركة دموع أمي مرة أخرى. آكل الكيك والبسكويت مفتقدة طعم الرغيف المقلي المحشو باللوز والمغطس في العسل؛ وبما أن كل شيء كان غريبا ذلك اليوم، لم أسأل عن طبق العيد الصباحي المفضل لدي، لم أستفسر عن تورم العينين، لم أستفهم عن سبب غياب أمي عن مائدة العيد.

في هذا اليوم بالضبط زارنا الجيران والأقارب بشكل مضاعف مقارنة مع الأعياد التي أتذكرها. خرجت رفقة جدي مرتدية فستاني الجديد، وحذائي الذي حرصت - وأنا أمام واجهة محل الأحذية رفقة أمي وجدي- على أن يكون خفيفا كأحذية راقصات الباليه. ذهبنا إلى مدينة الملاهي، عشت لحظات جميلة مشابهة لفرحة العيد، ثم اقترح جدي أن نذهب إلى السينما توجهنا إلى شباك التذاكر، اقتنى جدي تذكرتين، ولجنا القاعة المظلمة، أحسست بالرعب لأول وهلة، فأنا أخشى الظلام، يد جدي طردت الخوف من قلبي.

اخترنـــا مقعدا قريبا من الشاشـــة العملاقة، لم أعد أتذكر عنوان الفيلـــم الـــذي شـــاهدناه، ولا أحداثـــه؛ لأن جدي لـــم يكف عن الحديـــث يومها عن الأفلام التي شـــاهدها في شـــبابه، "كنـــت أشـــاهد فيلما في الأســـبوع"، يوشوش جدي: "شـــاهدت أفلاما كثيـــرة قبل أن يســـتدرك "أبي فوق الشـــجرة" الـذي شــــــارك فـــي بطولتـــه عبـــد الحليـــم حافـــظ، وفيـــلـــم "رابعـــة العدوية و"les quatresgarçonsdans le vent" و "le dollar troué les dix gladiateurs"... "شـــووت، شووووت، شووووووت" يقول شـــخص ما يجلس في الصف المقابـــل، يأمرنا أن نصمت ليركز أكثر في المشـــاهد الرومانسية هو وحبيبته، لكن جدي لم يلتفت لهذا الصـــوت، وتابع حكاياته التـــي أصبحت حكاياتي.. يتابـــع دون اكتراث بالمتأففين.. "وســـهرات الســـيدة أم كلثوم، وكان النـــاس يصفقون كلما غنت مقطعا من أغانيها، ويرددون: عظمة يا ســـت.. عظمة يا ست.. وكأنهم حاضرون في سهرتها في القاهرة وكأنها تســـمعهم..".

كم كنت ستدفع لو أن الرجل الذي يبيعك التذاكر يعلم أنك تحتفظ وحدك بألبوم من الأفلام والسهرات في ذاكرتك.. أقول له. فيرد ضاحكا: "أحمد اللـه أن لا أحد يستطيع أن يتسلل إلى ذاكرتي؛ فلو استطاع أن يجد منفذا إليها لعبث بأشيائي القديمة بدعوى أنها لم تعد صالحة لشيء، إنها آفة مرضى الحنين إلى الذكريات بالأبيض

والأسود: ربما أتلف أرشيفي، لكنني لا أستطيع أن أعيش من دون ذاكرة؟".

"شوووووووت، شووووووووووت"

بصوت متحشرج مبحوح، يصيح شخص يقتعد كرسيا أمامنا، مبديا انزعاجه، متأففا من حديثنا، جدي الغارق في سفره لم يعره اهتماما، اكتفى بخفض صوته، وهو يردد أغنية فيلم "أبي فوق الشجرة" الذي شاهده قبل تسعة عشر سنة" دقوا الشماسي.. دقوا الشماسي على البلاج دقوا الشماسي.. دقوا دقوا الشماسي.."، تساءلت إن كانت هناك أشجار تظلل السماء.. تساءلت بألم عن اسم الشجرة التي يتربع أبي فوقها.

أنتبه لكلمة الشماسي، راقتني، بينما جدي يحاول شرحها، ويذكرني بفصل الصيف، أتذكر تلك اللحظات السعيدة التي لم أقضها مع أبي في شاطئ طنجة، حينما كان يحملني فوق كتفيه، نلج البحر، نواجه الأمواج الوديعة، يبحر بي كسندباد لا يهوى المغامرة، يبللني بيديه، ثم يغمر بقايا جسدي الضئيل في ماء صاف لأجاور الحوريات. أذكر ذاك القصر الرملي الذي شيدته في ذاكرتي، وكيف زينته بالصدفات، ونصبت نفسي حارسة لظلاله، أذكر كل تلك التفاصيل الدقيقة التي كنت سأعيشها، لولا أنه اختار التحليق بعيدا عني، كم أحتاجك يا أبي لأخفف من ذاكرتي.

مساء، ونحن عائدان الى البيت، مررنا أمام مبنى يشبه كثيرا بعض المباني القديمة التي تظهر في أفلام السينما التاريخية. توقفنا للحظة، جدي صامت يتأمل هذه البناية، شاركته الصمت والتأمل، بناية ضخمة ذات معمار إسباني، ربما وضع تصميمها فنان عاش في طنجة أيام الحماية، البناية في حالة رثة شبه مدمرة تخيلتها تبكي حظها العاثر، لكنها تحتفظ بألق خاص رغم تعاقب السنين وعوامل التعرية والرطوبة، فمازال الهيكل قائما، بناية بطول فارع، شكلها المستطيل جعلها تحتل مساحة كبيرة، لها ثلاثة أبواب طليت بلون آجوري باهت، وبين كل بابين أسوار تتخذ شباكا حديديا يجعلك تشهد الدمار الذي حل في فناء هذه البناية، تتخللها نوافذ زجاجية أغلبها مهشم، عوض الزجاج بكرتون بني يحجب ما بداخل البناية، وفي وسط البناية لوحة رخامية مائلة إلى الأصفر كتب فوقها بالأصفر Grand teatro Cervantes، وتحتها وضعت سنة 1913، ربما هي سنة تدشين هذه البناية، كم هي عتيقة هذه البناية، فوق اللوحة الرخامية مباشرة كائنات حجرية تحاول التحليق، جدران البناية مائلة للسواد.. حالة من الفوضى تعم هذا المكان، يبرق سؤال في ذهني، لماذا تعيش هذه العزلة؟ لماذا اختفت اليد التي يفترض أن تخفف عنها بؤس السنوات؟ أتخيل هذه البناية عجوزا وحيدة تحتضر، ولا يد هناك تودعها، أتخيلها امرأة منكوبة تتذكر مجدها بحرقة.. لا يسعني سوى أن أتعاطف مع ألمها. أنتبه لرقم

13، وأتذكر أبي الذي أبحر إلى مجرة أخرى، ربما نتشابه في ألمنا ونحلم بيد تنتشلنا من بركة الوحل التي نغرق فيها.

ألتفت إلى جدي الغارق في التأمل، أحاول إثارة انتباهه، دون جدوى، أقبض بيدي اليمنى على يده اليسرى، فيحس بوجودي، يبتسم ابتسامة فيها ألم ظاهر، يشير بسبابته اليمنى إلى السماء، كما فعل يوم أخبرني أن أبي قد صار هناك.. تسلك عيناي الاتجاه نفسه الذي تشير إليه سبابته. أرى كائنات صغيرة مصنوعة من الحجر تلتصق فوق المبنى وكأنها تحاول اللحاق بالملائكة، أتخيل حكايتها.. أتذكر حلمي القديم بالطيران. أربط تلك الكائنات الصغيرة بي، وبحلمي. أتمنى أن أتحول إلى تمثال يثَبَّتُ إلى جنب تلك الكائنات على سطح البناية الضخمة التي أغبطها لأنها أقرب مني إلى السماء..

بزفرة كبيرة أعب نفسا عميقا من سيجارتي، أتابع سراب الدخان وهو يعانق زجاج النوافذ، أتخيله يخترق الزجاج ليواصل رحلته نحو البحر.

أعود إلى يوم 13 فبراير من سنة 1993.

ظلام دامس تحت الشرشف.. تحت شلالات حارة من الدموع.. الأجندة المعلقة على الباب الموصد لغرفتي تشير إلى شهر مارس، وفي سلة المهملات تنزوي الورقة الخاصة بشهر فبراير ممزقة، تلعن حظها السيء الذي لم يمكنها من تصدر الأجندة، والظهور

في الواجهة مرة في الســـنة كما هو الشأن بالنسبة للورقات المتعلقة بالشهور الأخرى. حرصت أن ألغي هذا الشهر الكئيب من حساباتي.. صـــوت جدي من وراء الباب لا يتمنى لي عيد ميلاد ســـعيد، لكنه يأتينـــي، وفي يده حبال لا مرئية، يمدها خلف الباب كي ينتشـــلني من العتمة. أخرج من تحت الملاءة. أمشـــي في الظلام نحو الباب. أدير مفتاح الباب، وقبل أن أخرج، يطلب مني أن أرتدي ملابسي. أخبره أنني لا أريد الخروج. يصر ويلح. أشـــعل الضوء الذي يؤلم عيني المنتفختين. أرتدي جينزا وقميصا بســـرعة ثم ننزل السلالم، يمشي جدي، وأنا أتبعه دون تفكير، وكأن تلك الحبال التي انتشلتني من العتمة تجرني وتأخذني إلى "مســـرح ثرفنطيس"، الذي تعلقت به قبل سنوات، تعلقت بكائناته الصغيرة ومظهره الكئيب الذي يشبه حالتـــي، دون أن أعرف حكايته الخفية. لا أعرف لماذا ســـتتعمق صداقتـــي بهذه البناية ذلك اليوم تحديدا؟ أهي هدية غير مصرح بها لعيد ميلادي الذي لا أحتفل به؟ كأن الأرض كتف، والســـتارة شعر أحمر ينســـدل، والخشـــبة وجه أنثى حزينة هي أنا. أستمع باهتمام كبير، وأفكر في تشـــبيه خشبة المســـرح بالوجه؛ هي فعلا وجه أو وجـــوه لحيواتنا.. أحـــاول أن أجد الصلة بيني وهـــذه البناية الآيلة للســـقوط، ربما لا يسعنا ســـوى أن نصمد في وجه الأعاصير التي تواجهنا..

يأتيني صـــوت جدي من بعيد، وهو يحاول اســـترجاع ماضيه

الأيل للاندثار. يؤلمه كثيرا أن يرى "مسـرح ثرفنطيس"، المعلمة التاريخية التي تأسسـت في القرن التاسع عشر وهي آيلة للسقوط، يؤلمه أن يرى ذكرياته وقد تحولت إلى قطعة إسـمنت مهدم، يؤلمه أن لا أحـد يبالي بالعجائز الذين خلفوا في هذا المكان ذكرياتهم مع ذواتهم ومع من أحبوا..

"كنت أشتغل في "تياترو ثرفنطيس"، وتحديدا في شباك التذاكر أو Dispacho de billetes كما كان مكتوبا بلون أسود محاطا بلون أخضر من كل الجهات، ومنحوتا بعناية على الحائط في إطار نقش بزخرفة متناسقة جميلة. سمحت لي اللغات الأربع التي أجيدها بالتواصل مع كل زملائي في العمل، لكن "لُولاَ" كانت الأقرب إلى روحي؛ "لُولا" امرأة مكتملة الأنوثة تمتلك مرح الطفولة. لم تكن تجيد إلا لغة واحدة لغتها الأم الإسبانية، والقليل من الإنجليزية. تنطق الكلمات الانجليزية بلكنة إسبانية أضفت سحرا على الكلمات، وهي تخرج تباعا من ثغرها الصغير الذي تحرص على تلوينه بأحمر شفاه وردي في تناسق تام مع ملابسها التي كانت في أغلب الأحيان وردية وبنفسجية. كانت تتحدث بسرعة ككل الإسبان الذين عرفتهم، وكنت ألاحق كلماتها، وأشم عطرها.. أملأ به روحي وكأنها زجاجة عطر وردية أو بنفسجية أرشها دفعة واحدة. ولم أكن أقدر على إخفاء غيرتي كلما أتى ضيف إلى المسرح. كنت أراقبها وهي تزاول عملها كمنسقة ثقافية للمسرح.

ذات يوم حضر شاب طويل القامة، أبيض البشرة، له عينان زرقاوان كأنهما سموات بعيدة، عرفت فيما بعد أنه ممثل مسرحي من إنجلترا بلد "شارلي شابلن". لا أعرف لماذا ذكرني بـ"شارلي شابلن" تحديدا، ولم يذكرني بـ"شكسبير". تذكرت "شارلي شابلن" صاحب الفيلم الشهير"مودرنز تايمز"؛ الذي تناول الطريقة الطايلورية اللا إنسانية في الشغل؛ ربما لأنني كنت أشتغل في شباك التذاكر وهذا الفيلم يناسب وجودي، يظهر زبون أبتسم له ابتسامة أصبحت مع مرور الوقت تلقائية، لا تعبر عن أي إحساس. أضغط على زر بداخلي، لا أعرف مكانه تحديدا. أستلم النقود، أناوله التذكرة، وأشكره على الزيارة، أغبطه؛ لأنه سيشاهد العرض بينما أظل وراء شباكي أبيع تذاكر العرض الموالي. كانت "لُولاَ" تتحدث مع الشاب الإنجليزي بتلقائية كبيرة، ودون تكلف، أصغي إلى حديثهما بينما تسجل "لُولاَ" في مفكرتها معلومات عن الفرقة التي يديرها "جون"، والتي ستقدم مسرحية الأسبوع الموالي. في نهاية اللقاء عرضت "لُولاَ" على "جون" أن ترافقه هو وبقية أعضاء الفرقة لاكتشاف بعض الأماكن الجميلة أثناء تواجدهم في طنجة. لم أشعر بنفسي إلا وأنا أقف أمامهما، أتدخل، وكأن شخصا آخر يتحدث، أو ثمة قوة ما تحركني وتدفعني،" لُولاَ" أنت مشغولة هذه الأيام، لدينا عمل كثير في المسرح، ليس لديك الوقت لتتنزهي في المدينة. استغربت "لُولاَ" كثيرا من موقفي، لكنها صمتت خشية أن أحدث

مشكلة ما، ولم يعلق "جون". ودع "لُولاَ"، وودعني محاولا إخفاء ما اعتراه من استغراب. وأنا وراء شباكي استحضرت ما حدث. كيف تحولت فجأة من إنسان طايلوري ميكانيكي مبرمج إلى إنسان يغضب، ويثور، ويقوم بأكثر مما طلب منه، عندما ولج لأول مرة هذا المبنى الضخم ليشتغل وظيفة الإنسان الآلة. ما هي الغيرة؟ هل تصرفي غير المبرر كان غيرة على "لُولاَ" أم حبا في نفسي، وتملكا للآخر. هل يعد تخوفي من الآخر الأشقر المختلف هو انعدام الثقة في النفس؟ لماذا كلما نذر الشيء ازدادت قيمته؟ لماذا علينا أن نقطع مسافات طويلة لنكتشف أن كنزنا يوجد على بعد ميلين منا كما حصل مع بطل رواية "الخيميائي" لباولو كويلو؟

مرت بضعة أيام على هذا الموقف. صارت "لُولاَ" متحفظة بعض الشـــيء في تعاملها معي، لم تعد تنتظرني ككل مســـاء في "مقهى باريس" لنشـــرب الشاي، ونتحدث قليلا قبل أن نذهب إلى المسرح مبررة ذلك بانشغالاتها الأســـرية. كان لـ"لُولاَ" طفلتان من طليقها "خوســـي لويس" هما "آنَّا" و"لاورا" تشبهانها في كل شيء. "آنَّا" تدرس في الصف الأول بالمدرســـة الإسبانية بينما تدرس "لاورا" في الصف الرابع بالمؤسسة نفسها.

"آنَّا" طفلة نشيطة، وذكية جدا، تمتعت "لاورا" بدرجة عالية من الذكاء أيضا، لكنها كانت تستحضر دائما والدها الغائب مما أحزنها

كثيرا. كان "خوسي لويس" والد البنتين يسكن بغرناطة مسقط رأس "لُولاَ"، هو رجل قليل السؤال عن ابنتيه، يكتفي بزيارة سريعة كل بضعة أشهر، ولا يبالي بحاجتهما، لطالما أحسست بألم "لولا" كان ألما داخليا، لا تصرح به، تكتمه، لكن عينيها الذابلتين كزهرة الجوري كانتا تفضحان حجم عذابها، هي المحافظة على ابتسامتها المعطرة بالنسيان.. "لولا" تعشق غرناطة، فلطالما حدثتني عنها.. عن رياح غرناطة التي تصفف شعر الليل، عن شعر الليل الغجري الذي يكنس ساحات المدينة، عن المدينة التي تنام مفتوحة الذاكرة.. ولعها جعلتني-وهي تروي تفاصيل المدينة- أسحر بهذه الغجرية الماردة، التي تروض كل حلم ليلي مسافر، تحول الوله إلى حلم.. حلمت أن أزور "قصر الحمراء"، و"كاتدرائية غرناطة" التي بنيت فوق مسجدها الذي يقع وسط المدينة، و"جنة العريف" التي تقع في جرف عال يسمح برؤية ماسحة لشوارع المدينة ومعالمها.

كان سرد "لُولاَ" دقيقا جدا إلى درجة أنني صرت أعرف غرناطة زاوية زاوية، وأناديها بكل أسمائها".

أصغي إلى جدي، وأتخيل "لُولاَ" تنهض من رماد الخراب في فستان وردي؛ وتبصم قبلتها على خذ جدي، وتشرح له حكايتها التي يعرفها..، تنهض من "تياترو ثرفنطيس" لتلوم جدي على الخراب الذي طال عشهما المنسي.

لا أعلــم إذا كنت قد ســمعت كل شـــيء أم لا؟ لأن جدي كان يتشبث بكل التفاصيل؛ كل تفصيل دقيق يشكل بالنسبة إليه فسيفساء ضرورية لتكتمل اللوحة. الدقة نفسها التي جعلته يرى غرناطة من خلال سرد "لُولاَ" جعلتني أرى نوافذ "مسرح ثرفنطيس" مفتوحة، وأســمع معزوفات قديمة نوتة نوتة.. تصعد.. تلتصق بسقف طنجة الأبــدي.. وأنا مبحرة فيَّ أتأمل تفاصيل ذاتي التي تراقص الغياب، أصحو من حلمي لأحسد جدي.. لأنه شهد هذه الأحداث بينما أعيش تفاصيلها حكاية ناقصة، قد أتقمص صورة الفاتنة "لولا"، قد أكون المقعد الخلفي المتلصص على الجمهور، قد أكون كمانا صدئا يبحث عن موســيقار يعيد إصلاحه ليغني من جديد.. قد أكون أنا لغة تعيد خلق العالم، عالم "تياترو ثرفنطيس".

السوق الداخلي

المشهد البحري.. الأغنية الحزينة.. وجه مدينة شكلتها أياد كثيرة.. طنجة منحوتة بملامح كونية.. لذلك تعودت أن تنسب أسوارها، وأبوابها العتيقة، وقصباتها، وقبورها إلى كل الحضارات التي تعاقبت عليها، وإلى الكُتَّاب أيضا؛ فالكاتب لا يبني مدينته بالرمل والحجر لكنه يشيدها بحواسه. طنجة تحفظ عن ظهر قلب أسماء كل الكتّاب الذين أعادوا تشكيلها، وترغمنا على تذكرهم. ترسل رياحها الشرقية التي تمر بخفة عبر الممرات الشاسعة للذاكرة.. توقظ حواس الذاكرة، فنرى، ونسمع، ونشم، ونتذوق الماضي الذي يصل إلى بول بولز، وشكري، وجان جنيه.. هكذا يحدث معي كلما مررت من "السوق الداخلي"، وغبت في أزقته الضيقة كشيء صغير لا يُرى بالعين المجردة. يروقني في تلك الأزقة أن أرفع عيني إلى السماء، وأراها محصورة في إطار صغير؛ قطعة زرقاء يتخللها البياض، هي سماء شكري، وسماء بسطاء هذه المدينة. السماء في طنجة-وفي جميع مدن العالم- مرنة، تتمدد في "الجبل الكبير"؛ حيث الفيلات الفاخرة،

ونادي الفروسية، وتتقلص في "السوق الداخلي"، تبدو متوسطة الحجم من شرفات "البولفار" بسبب البنايات المقابلة لها التي تتخذ شكل حواجز.

كلما مررت من ذلك الزقاق أحسست بشيء غريب، قد يعود ذلك لاسم الزنقة الذي يدل على الوحدة والعزلة، لكن إحساسي ذلك اليوم كان مختلفا. كنت كالبحار الناجي في "حكاية بحار غريق" لـ"غابرييل غارسيا ماركيز" معلقة على طوافة.. كنت كالبحر الذي تركله اليابسة كلما اقترب منها. لم أكن أنعزل كعادتي، لكن إحساسي بالعزلة يأتي من داخلي المشوش، داخلي الذي يحتاج إلى خارطة طريق تخرجه من دوامة معقدة. أتخبط في أفكاري، وفي واقعي، وفي أحلامي. أغصاني تهتز.. كنت شجرة خريف تحتاج من يشذب جذوعها لتواجه الشتاء بصرامة، وكانت أسئلتي ريحا قوية.. ربما لو لم يسقنِ ماء عروة بن الورد، والخنساء، وأبي نواس.. إلى مدرجات كلية الآداب والعلوم الانسانية لما صرت الدكتورة أحلام المعطلة عن العمل، وعن كل شيء سوى الذاكرة المتيقظة المتمسكة بالتفاصيل الصغيرة. تفاصيل الدواوين التي حفظتها ومازلت أتذكر أبياتها التي صاحبتني في ليالي الخريف، وأنا أتلهى بالاستعارة والمجاز في انتظار عودة أبي الطائر..

حرصت على وشم القصائد التي تحتفي بالماء أو البحر أو المطر، كنت لا أنجز واجباتي الجامعية لكي أتتبع لفظة البحر في نصوص "المياه كلها بلون الغرق" "لإيميل سيوران"، أو أتلهى بلفظ الفيض عند "ابن عربي"، لا أعرف سبب افتتاني بالماء وما يدور في فلكه، ربما لأنني أنثى ناقصة عوَّضت الغياب بشلالات صافية تنهمر داخلي ومن عيني المتورمتين، ربما لأن المطر يحيي فينا الأسئلة الدفينة، ويذكرنا دائما بمن أفلوا داخلنا.. هذا ما قالته الصرخة التي تفجرت في أعماقي. أحاول أن أغلق أذني كي لا أسمعها وهي تصعد مني، أحاول أن أتخلص من عزلتي التي تواطأت بشكل سافر مع الألم مسهلة له موعدا معي على انفراد ليغرس سكاكينه الصدئة في أحشائي.

حاولت جاهدة ألا أفكر في احتمال وجود شخص معي، يلحق بي أو ألحق به، وفي غياب ذلك الشخص الذي كان سيرافقني في رحلة العذاب. أنا الآن وحيدة ألج "زنقة واحد" التي تشبهني في عزلتها: قلت في نفسي هكذا هو الإنسان يخلق لوائح طويلة من البديهيات التي تناسبه ليرتاح. ليحرر أناه من ثقل المعاناة، يصنع المبررات ويصيغها باستعاراته لتناسب مظهره الخارجي، هو يعرف كما أعرف أنها لا تناسبه داخليا، لكنه يصر أن يصم أذنيه كي لا يشيخ وينجرف إلى ألبوم الذاكرة..

خوفا من عودة الإحساس المربك بالوحدة، عبرت "زنقة واحد" ببطء شديد، استفزني رجل كان يمشي ورائي رفقة طفلة بضفيرتين، تحمل محفظة مدرسية سماوية اللون رُسم عليها دُبٌّ وردي، ترتدي فستانا أزرق غامقا، وحذاء أسود تكشف فتحاته عن جوارب بيضاء مطرزة، كلما سحبها من يدها ازدادت قدماها تشبثا بالأرض. أعجبني عنادها؛ لذلك تلصصت عليهما بطرف عيني. كما تلصص الرجل على حيرتي. أزعجني تأفف الرجل، فأفسحت الطريق له، ليعبر كالبرق. تركته يمضي وأنا أتأمل بعض الشيب الضاحك في مرفقيه، تخيلتني تلك الطفلة التي يجرها الرفيق العربي، تخيلته يصطحبني إلى باب الروضة ويمنحني قبلته ويمضي إلى حيث يشاء.. تخيلت ذلك، فأفسحت الطريق كي لا تتأخر الطفلة عن الروضة. تقدم الرجل خطوة أمامي، وأدار وجهه ليشكرني بابتسامة امتنان، للحظة خلته أبي الذي لم أره إلا في الصور، ولم ألمسه إلا في خيالاتي، للحظة خلته كذلك، لكنه كان "مرادا"..

هو "مراد".. "مراد" قلت بصوت ابتلعته المفاجأة. تسمرت قدماي في مكانهما، واستمر "مراد" في جر الطفلة كي تسرع، حاولت أن أتيقن من الأمر تبعتهما بخطى سريعة، هو "مراد" كما عرفته لم تتغير مشيته، حركاته، صوته، ما تغير فيه هو مظهره الذي أصبح أنيقا وشعيرات الشيب التي نبتت فوق أذنيه. تبعتهما كي أطمع فضولي، ولما شبعت، تسمرت في نهاية الزنقة، اراقبهما إلى أن

اختفيا كليا عن أنظاري. أيعقل أن تكون الصغيرة ابنته؟ ولم لا؟ هل انتبه لوجودي؟ ولماذا لم يتطلع إلى وجهي؟ هل يمقتني إلى هذا الحد أم أن عقدة الذنب مازالت تسكنه منذ ذاك الزمن البعيد؟ أسئلة تنمو في ذاكرتي، تحرق ما تبقى من تركيزي، تدفعني كي أسترجع ألبومي الأليم..

منذ ثلاثة أشهر التقيت صدفة بصديق قديم "لمراد"، أخبرني أنه عاد إلى المغرب قبل سنة، يومها كنت أتمشى على كورنيش المدينة من دون وجهة محددة، فقط أتملى منظر الأمواج وهي تندب حظها المسائي، صديقه يقف أمام الملهى الليلي "باسادينا"، يرتدي قميصا مخططا بالرمادي، والبرتقالي، والأبيض، وجينزا رماديا، يضع نظارة شمسية سوداء فوق رأسه المستدير، يبدو من عنقه الذي لا يكف عن اللف يمينا ويسارا أنه ينتظر أحدا ما. لكنه لم يكن ينتظر، هو يمارس عمله اليومي، يطرد السكارى، ويمنع المتسولين من الاقتراب، مهمته حفظ الأمن حتى لا ينزعج أهل العلبة الليلية، يوزع ابتساماته على بنات الليل، يبادلهم القبل الخفيفة، يفسح الطريق لأصحاب البدل السوداء.. إنه الضامن للنشوة المنشودة.. بعد أن لمحني وأنا أمر أمام الملهى الليلي، لوح لي بيده اليمنى، بينما وجهه يصطنع ابتسامة محايدة، للحظة فكرت في عدم الاكتراث به، ثم تراجعت عن فكرتي، تقدمت نحوه وكأني أقترب من مكان بعيد في ذاكرتي، منطقة محظورة يصعب التجوال فيها دون أن تصاب بضيق

في التنفس.. جزء من الذاكرة أعطيته منوما شديد الفعالية كي لا يصحو فيحرقني من جديد، حرصت أن أترك هذا الجزء في سبات عميق.. رؤيته فقط حركت البركة الآسنة.. مددت يدي وذاكرتي صوبه، صافحني، ثم نظر إلى ساعته اليدوية، سألني عن حالي وأحوالي، وفعلت الشيء نفسه ببرود. أتذكر أني قلت له إن الزمن يمضي بعجالة، لم أكن مقتنعة بما قلته فالوقت لم يمر بسرعة بالنسبة إلي لأنني دائمة الترحال فيَّ علني أفهم سر حرائقي، غير أن هذه الجمل تأتي هكذا نقولها لنتجنب الصمت، هي تصنع نفسها بنفسها مثلها مثل جمل كثيرة في لغتنا، وفي جميع لغات العالم. لم يتوقف عن الالتفات يمينا ويسارا حتى استخدمت جملة من تلك الجمل التي تناسبنا لنطوي اللحظة، ونمضي إلى أوجاعنا، أخبرته أنني سعيدة جدا بلقائه، وبينما أنا على وشك المغادرة، أخبرني أن "مراد" عاد رفقة زوجته ليستقرا بالمغرب. تعمدت أن أظهر عدم اكتراثي بالجملة الأخيرة، وكأنني أخبره ضمنيا أن قصص "مراد" ما عادت تهمني لأنها ما تزال نائمة، فلماذا تزعجها برائحة الويسكي المنبعثة منك. ودعته مرة أخرى، وودعني لافظا اسمي بعد عبارة "باي". حين نطق اسمي بحروفه الخمسة "أحلام" بمعناه الذي ينغرس كالخنجر في جسد واقعنا، انتبهت إلى أنني لا أتذكر اسمه، ربما لم يسبق لي أن خزنته في ذاكرتي، أو أنني لم أهتم باسمه..

فأنا و"مراد" لم نلتقِ به سوى مرات قليلة، كنا وقتها في بداية علاقتنا، فلم أهتم كثيرا بأصدقائه، كان يشغل حواسي وتفكيري، لم يدع لي الفرصة لأتنفس، وكأنني كنت أعدو مسافات طويلة لأصل إليه مبللة بالعرق والسؤال..

لا تلتقط حواسي سوى "مراد"، أحفظ كل ما يقوله، وأتبنى أفكاره كامرأة بلهاء، كأنه إله يكفي أن يشير بسبابته لأنفذ ما يطلبه مني.. أقلد مشيته، أقلد وضع يديه داخل جيبي الجينز، أقلد ارتداءه الشالَ الأحمر على كتفيه. أول سيجارة أشعلتها كانت من يديه، فلطالما أوهمني أن التحرر لصيق بالثورة على العادات والمعتقدات، لطالما جعلني أعتقد أن الصراع الطبقي كفيل أن يوصلنا إلى مرحلة التغريب، ساعتها سنثور، ثورتي لصيقة بتدخين السيجارة التي ستحررني من العبودية، هكذا أدمنت السجائر الرديئة تلك التي تجعلك ابنا بارا لطبقة الكادحين.. هو يشعل السيجارة، وأنا أتدفأ بدخانها من البرد الذي يجتاحني.. ولم تكن السيجارة وحدها التي ستجعلني "سيمون دي بوفوار"، بل كان علي أن أعطل تفكيري وأنساق وراء "مراد" وهو يعارك من أجل تحريري من العبودية..

كنت حينها في سنتي الأولى بالجامعة في "مرتيل"، أدخل عالما جديدا مختلفا عن عالمي في "ثانوية زينب" بطنجة. الجامعة مزيج من الطلبة القادمين من أصيلة والعرائش والقصر الكبير وشفشاون،

ومن قرى مختلفة متاخمة لمدن الشمال، الطلاب يتبنون أفكارا مختلفة تختلف باختلاف توجهاتهم الفكرية. طلاب ينتمون لمنظمات يسارية راديكالية، وآخرون ينتمون لتيارات إصلاحية بينما فئة منهم تتبنى الخيار الأصولي موزعة بين فئتين الفئة المتشددة والفئة المتنورة التي تقبل الحوار.. وساحة الجامعة حلبة لتصفية الاختلاف، وغالبا ما ينتهي الاختلاف بمعارك دامية، تدور بين فصائل مختلفة حد التناقض، ربما ما كان يجمعنا هو حلم التغيير، تغيرت مساحات كثيرة داخلنا لكن الواقع بدواليبه ظل متشبثا بأرضه الصلبة.. ولطالما شهدت حلبة الجامعة تدخل "الأواكس" بقسماتهم الخشنة لتصفية النزاع، واعتقال المشاغبين.. لكن المشهد هو هو لا يتغير.. وحده بحر مرتيل ظل يناجي أرواحنا العليلة لنخفف قليلا من ثقل ذاكرتنا..

كنت صغيرة كحبة رمل وسط شاطئ كبير سهلة الانجراف. هل الشبه بين مراد وأبي كما تخيلته كان المبرر الذي قادني إلى الانضمام إلى ماركسيي الجامعة؟ أم أنني انسقت وراء حلم تغيير العالم؟ هل أحببته منذ اللقاء الأول حين شاهدته في الحلقية يردد مقولات لينين وكارل ماركس وجيفارا بنبرة الثائر؟ أم حين جالسته في إحدى الليالي ببيت رفاقنا في التنظيم احتفاء بالملتحقين الجدد؟

أذكر أن مائدة ذاك المساء البعيد من مساءات الخريف كانت بسيطة، فاصوليا بالطماطم والفلفل الحار، وسلطة، وزيتون أخضر، وُضعت في أطباق صغيرة، وخبز شعير، وشاي .. تناولنا عشاءنا، ونحن في صالون البيت، حصيرة كبيرة تتوسط المقعد، ومخدات نثرت بشكل عشوائي في زوايا الغرفة، وطاولة خشبية مستديرة بأربعة أرجل صغيرة حولها كراس خشبية بالية. على الحائط المقابل لمقعدي علقت صورة كبيرة لـ"تشي جيفارا" وأخرى "لعبد الكريم الخطابي"، وألصقت أوراق بيضاء كبيرة وسميكة كتبت عليها بعض من مقولات تشي:

"لا يهمني متى أو أين أموت. لكن همي الوحيد أن لا ينام البرجوازيون بكل ثقلهم فوق أجساد أطفال الفقراء والمعذبين، وأن لا يغفو العالم بكل ثقله على جماجم البائسين والكادحين"

"يقولون لي إذا رأيت عبدا نائما، فلا توقظه لئلا يحلم بالحرية، وأقول لهم، إذا رأيت عبدا نائما أيقظه وحدثه عن الحرية"

"إني أحس على وجهي بألم كل صفعة توجه إلى كل مظلوم في هذه الدنيا، فأينما وجد الظلم فذاك هو وطني"

قرأتها واحدة واحدة، تأملت معانيها، قدري أن أحرر العبيد من القهر، أن أثور في وجه الديكتاتور القابع في منطقة خفية من روحي، قدري أن أتحول إلى موج هائج يحرق الإسمنت المتكلس في أحلام

الكادحين.. رميت الجملة الأخيرة إلى ذاكرتي، أحسست بعظامي تصطك.. أحسست بحميمية غريبة، وكانني أصالح وطني الذي أحلم به، وكأن أبي يشجعني على المضي في الحلم..

سيجارة أخرى تحلق في سماء طنجة، تصنع سحابة فارغة.. يتأفف رجل خمسيني من رائحة السجائر، لا أهتم لانزعاجه، أعود إلى ذاكرتي..

بعد العشاء سهرنا، كانوا يغنون أغنيات الشيخ إمام، ومارسيل خليفة، وأحمد قعبور، وسعيد المغربي وأميمة الخليل. يعزف أحدهم على العود:

"البحر بيضحك ليه

وانا نازله ادلع املا القلل

البحر غضبان ما بيضحكش

أصل الحكاية ما تضحكش

البحر جرحه ما بيدبلش

وجرحنا ولا عمره دبل

البحر بيضحك ليه

البحر بيضحك ليه

وانا نازله ادلع املا القلل"

يرددون، فيتسلل صوت الشيخ إمام من صباحات الأحد. أردد معهم كما كنت أردد مع أمي، وهي تحضّر الفطور في المطبخ آخر الأسبوع. أراها وهي تعد الشاي، وتقلي البيض، وتقول لي للمرة الألف أن أبي يحب هذه الأغنية كثيرا:

"البحر بيضحك ليه

وانا نازله ادلع املا القلل"

صوت الإمام يخترق جوانحي، ونظرات "مراد" تخترق أسواري الهشة، أسقط صريعة في حباله، الرفيق العربي يبارك خطواتي إليه، أمشي في حذر وتوجس، هو يشرع ذراعيه، يدعوني إلى الحلم بغد وردي، غد يحررنا من ذواتنا المكبلة بقيود المجتمع المتخلف، أقنعني بحلمه الذي صار حلمي، فأفسحت له الطريق إلى مدينتي الغريقة لينتشلها من الضياع.. منحته مفتاحي ليقودني إلى جزيرته العذراء، لنعيش هناك، وهناك نحت وشمه الأبدي في جسدي المرتعش، عشت تلك اللحظة بفرح طفولي، أيقنت أنني صرت أنثى مكتملة لا تقنع بنصف اللذة، أوغلنا في سماء غير متناهية يوحدنا الشهيق الذي يعلو ولا ينخفض، أجسادنا تحلق وراء سراب الرفيق العربي، تسيل من جسدينا شلالات من العرق، لا نأبه به، نبدأ سفرا آخر، يبحر بي بعيدا عن أوجاعي ولا يأبى الرجوع. وفي الصباح أقص عليه بعضا من تفاصيل رواية "رؤى لوكريثيا" "لخوسيه ماريا ميرينو"، وكيف

أن الفتاة تعاين المآسي في أحلامها، لكنه لم يكن يعبأ بكوابيسي، ظل يربت على كتفي وينصحني بالعودة إلى مذكرات "لينين" الجافة أو "الأدب والثورة" "التروتسكي".. حتى أتمكن من توجيه ثقافتي الأدبية لمقاومة الاغتراب، أطعت أوامر قديسي، فبحثت عن تلك الكتب التي يمكنها أن تحولني إلى امرأة أخرى، قرأتها بتمعن لكنها لم تكن قادرة على تحريكي.. فاكتفيت بالنظر، ومتابعة الحلقيات التي يقودها "مراد"..

في صباح ربيعي، صحوت من نوم غير مكتمل، تمططت قليلا، انسحبت من فراشي، برد خفيف يلفني، تيقنت أنني لا أحلم.. توجهت إلى المرحاض، أحسست برغبتي الكبيرة في التجشؤ، مرارة صفراء تصعد من بطني، جعلتني أحس بتعب يشل أطرافي، وكأنني محاربة من زمن الساموراي، شيئا فشيئا بدأت حرارة جسدي ترتفع، أحس بخلل ما يقبع داخلي، صديقتي التي تشاركني الغرفة انتبهت لحالتي الصحية، أعطتني حبة أسبرين، ونصحتني بعيادة الطبيب، رفضت الفكرة من أساسها بدعوى أنني بخير.. في المساء لاحظ "مراد" شرودي، انتبه لدخولي المتكرر للحمام.. فاستفسر عن حالتي الصحية.. أخبرته بعلتي، صحبني إلى شاطئ مرتيل، وهناك حاول أن يخفف عني حدة المرض.. حالتي ظلت تتعقد كلما انطفأت شمعة يوم.. قررت في اليوم الثالث أن أزور طبيبا، رافقني "مراد" إلى العيادة، أخبرت الطبيب بأعراضي، أدخلني إلى غرفة خاصة وهناك فحصني

جيدا.. قال لي لا تقلقي "مدام"، أخافتني هذه الكلمة ولم أعلق، عدنا إلى مكتبه، وبشرني بالوليد الذي يلعب في أحشائي.. أحسست وكأنه رمى بقذيفة هاون أصابتني فشتتني إلى شظايا كئيبة، ابتلعت لساني فلم أنبس بكلمة، تركت "مراد" ينجدني من غرقي، خرجنا من العيادة صامتين، أفكر في هذه الفاجعة التي ستقصمني، أفكر في هذه الزوبعة التي تأكلني، ما العمل؟ هو السؤال الذي لطالما طرحه "مراد" في الحلقيات، وكان يجد دائما أجوبة الخلاص، آن الأوان ليخلصني من ثقل هذا السؤال.. ما العمل؟ ظل السؤال ينمو داخلي حتى سيطر على كلي، ما العمل؟ طلبت من "مراد" أن يتركني بمفردي، قصدت زاوية هامشية في مقهى "رياض العشاق"، ورحت أردد السؤال نفسه ما العمل؟ أعاين نظرات الاحتقار من رواد المقهى، أعاين شجبهم الصريح لجرمي، أعاين تلك الأصوات القابعة داخلي وهي تلعنني، أنا الوحيدة في بحر مظلم، أعطل حواسي، أهيم في صحراء بوهيمية، أتخيلني فراشة تطير في السماء، تقترب من ضوء شمعة فتحترق.. أعاين احتراقاتي.. أعجز عن الولادة من جديد.

تتردد الأغنية الجرح في خاطري.. يسيل الجرح ..يتحول إلى نهر صغير.. أراه يجري.. تتكون بقعة على ملاءة سرير بعيد في عيادة طبيب بلا ملامح.. بأصابع داخل قفازة بلاستيكية بيضاء يمحو ملامح كل شيء.. أرى طبيبا آخر يبتسم ممسكا بذراعي المستسلمة، يبحث عن عِرْقٍ بارز بين عروقي التي أبت أن تطل من شرفاتها،

يضطر إلى إعطائي حقنة عبر العرق البارز في يدي.

أتألم.. أغيب.. تصير الأصـــوات بعيدة جدا.. لا أحس بأصابع الطبيب، وهي تقترب داخل القفازة البلاستيكية البيضاء.... لا أحس بأصابعه الخشنة، ولا بآلته، وهم يشطبون على ملامح طفلنا المؤجل أنا و"مراد"؛ الملامح التي تشـــكلت في مخيلتي منذ أن عرفت أنني حامل. أصبت بالخيبة والحزن لكنني سرعان ما تخيلتني أما ترضع وليدها ليكبر، أحسست بشيء ما يجذبني نحو ذاتي بأصوات أسمعها وحـــدي، بالحياة تكبر فـيَّ، أمتلئ بها.. كم وددت أن أحتفظ بطفلي. عرضت على مراد لائحة طويلة من الحلول، وبخاصة أن عائلتينا تعرفان بطبيعة علاقتنا، فلطالما زرته في بيتهم القريب من بيت جدي بطنجـــة، لكنه رفض رفضا قاطعا؛ لأنه لم يكن قادرا على مواجهة والديه، وعلى التطلع في أعين المجتمع، يائسا من كل شيء، يؤمن بأن منح حياة لطفل جريمة.. كيف أعطيه جواز ســـفر إلى الجحيم؟ كيف أواجه والدي؟ كان يقول.. يثور.. يصرخ.. يمســـك بذراعي بعنف. يصير حنونا أحيانا، يخبرني أن عملية الإجهاض عملية سهلة جدا لا تتجاوز نصف ساعة.

"البحر بيضحك ليه

وانا نازله ادلع املا القلل

البحر غضبان ما بيضحكش"

نردد، فجأة جاء أحدهم بسطل به قنينات البيرة، وقطع ثلج مكعبة، وزعها على الحاضرين. ترددت في البداية، لكن مراد أخذ واحدة، ووضعها في يدي بعد أن فتحها محدثا فرقعة كتلك التي نحدثها عندما نفتح "كانيت" الكولا. أخذتها كان طعمها غريبا، وسألت: لماذا يستمتع الناس بشرب البيرة على الرغم من مذاقها السيء؟ فيما بعد، وبعد أن أصبحت من المولعات بشربها، أدركت أن السر لا يكمن في المذاق؛ وإنما في الإحساس بالاحتفاء الذي غاب عن حياتي سنوات طويلة. كانوا يناقشون ظاهرة الذكورة في المجتمعات العربية. قال أحدهم "إنه من المفترض أن تكون الحقوق الاجتماعية للمرأة والرجل متساوية. تحدث "مراد" عن حرية الجسد، وقال: "الإنسان روح وجسد، الروح تسكننا دون أن نعيها أو نعرفها، وأحيانا نشكك في وجودها لأنها غامضة، والجسد نسكنه بإرادتنا، يحمل أثقالنا وأفكارنا وكآبتنا دون ملل، يطفو بنا على سطح الأرض في رحلة لا تشبه أية رحلة، ومادام كذلك، لا يصح لنا أن نسيء إليه ونحمله وهم الخطيئة".

انبهرت كثيرا بكلامه، وبكل شيء فيه: تشبيهاته، وأفكاره، وطريقة شربه البيرةَ، وصوته المميز جدا. كان فارسا حقيقيا لأحلام. تملكتني رغبة غريبة في أن ألمس يده. تذكرت ما قاله "زوربا" في رواية "نيكوس كازانتزاكيس "إن لكل إنسان حماقاته، لكن الحماقة الكبرى في رأيي هي الا يكون للإنسان حماقات". خشيت أن أرتكب الحماقة

الكبرى، ومنذ ذلك اليوم وأنا أرتكب حماقة تلو أخرى. امسكت بديه، وطلبت منه ومن الرفاق أن نقوم لنرقص "رقصة الزوربا" لم تكن هذه الموسيقى متوفرة لديهم طلبت منهم أن يغمضوا أعينهم، ويتخيلونها. كنت أغمض عينيَّ، وأمسك بيده، أحس بقدميّ وهما تتحركان يمينا ويسارا. كل واحد منا يصغي إلى زورباه، وربما تشكلت قصيدة في ذهن "مراد".. ربما كان يرسم ما تنامى في ذهني..

"مراد" طالب بشعبة الأدب الإنجليزي مهووس بالشعر يكتب قصائده بالإنجليزية والعربية. شاعر مثل أبي، وماركسي لينيني مثل أبي. شاعر يكتب لنفسه، ولروحه، ولجسده، ولماضيه، ولحاضره، ولمستقبله ولي أحيانا. كان يكتب لي الشعر في الرسائل، وفي الرسائل القصيرة. رسالته الأولى كانت جملة مقتضبة غيرت حياتي:

"عادة ما يُربط الاعتراف بالذنب. أكره أن يُشَبَّهَ الحب بالذنب لذلك لن أعترف"

في صباح الغد الموالي أهداني بمقصف الجامعة شاله الأحمر لَفَّهُ حول عنقي من كل الجهات كحبه الذي طوقني. لم أعرف يومها أن هديته ستكون لغما في دولاب ملابسي. لغما زرعته بعناية كي ينفجر في وجهي كل يوم.

طوال ست سنوات وأنا أرتدي لغمي حتى صار حزاما ناسفا يلفني. حزاما ناسفا فجرني يوم وجدت نفسي أودعه في مطار محمد

الخامس، وهو هارب إلى المجهول مع امرأة أخرى، قال إنها صديقة من أمريكا، تمتلك مطعما شاميا في واشنطن هي وشريك لها من سوريا. اقترحت عليه أن يشتغل معها، لكني أحسست منذ الوهلة الأولى أنها صداقة من نوع آخر. تأكدت ظنوني في ما بعد، عندما انقطع تواصله معي عبر الرسائل والهاتف والإنترنت.. مبررا غيابه بعمله الشاق.. أكذب نفسي، أغفر له عسى ذاك الخيط الواهن الذي يربطني به يستعيد قوته، فيعود طائري إلى عشه، اختار أن يمعن في إذلالي وكأنه يتخلص من بضاعة فاسدة، ظل يحيك القصص التي تجعله بعيدا عني، لا أعرف لماذا لم يتملك الشجاعة لكي يصارحني، هو المطالب بالحرية والعدالة والمساواة..

كان يفتح الماسنجر مرة في الأسبوع، تقلصت تدريجيا لقاءاتنا على شرفة "الهوتميل" إلى مرة واحدة في الشهر قبل أن ينقطع التواصل كليا..

كنت قد وصلت إلى "باب البحر" تنسمت هواء البحر العليل، أسمع صوت الموج وهو يعاقب رمال طنجة السوداء، وكأنه يزأر، يلعن المدينة.. تذكرت وأنا أسمع هذه السيمفونية البحرية أنني نويت الذهاب إلى بيت جدي. انتابني قلق كبير ساعتها؛ لأني لطالما اقتنعت، أنني وأدت مرارة "مراد" ونسيت الجراح التي وشمت جسدي وروحي، لماذا يستيقظ الماضي فجأة ليجرنا إلى شباكه المعقدة؟

هل قدري أن أظل حاملة ثقل الحكايا الصفراء؟ من الذي أتى بك يا "مراد" إلى طريقي، ربما كان علي ألا ألتفت إلى شبح "زنقة واحد" لأقتلك إلى الأبد.

ها هو "مراد" يأخذني إلى البحر كما كان يفعل في "مرتيل". البحر مثلي متردد، لكنه يتشبث دائما باليابسة، بحري ظل يحن إلى يابسته، لم يكن باستطاعته أن يسير إليها، أن يقبض على أحلامها، أن يحتويها ويحميها من المجهول، اليابسة ودعته، تركت الفراغ له ليطوي أمواجه، "مراد" ظل أرضا محروقة. لم أكن بحرا.. ولم يكن اليابسة. كنا استعارات تحتاج من يعيد فهمها..

توجهت إلى بيت جدي. الطريق قصير لكنني كنت مثقلة بالذكرى. أمام بيت جدي، شاهدت فتيات تلعبن "لعبة البيسو"؛ وهي عبارة عن مجموعة من المستطيلات المتلاصقة كل مستطيل يحمل رقما، على كل فتاة أن ترمي بحجرة صغيرة، وأن تقفز بقدم واحدة دون أن تدعس الخطوط المرسومة بالطبشورة، حتى تصل إلى مكان الحجر. تحمله، وتكمل القفز إلى آخر مستطيل. هكذا هي الحياة قفز بقدم واحدة، ودون القدرة على مس الخطوط. ربما كانت مشاعر الحب إحدى تلك الخطِوط، ربما كان هذا خطئي...

دفعت الباب الخشبي الأزرق المقوس من فوق الذي زخرف بنقوش نحاسية دائرية تمتد على طول المستطيل المزركش بخطوط سوداء

باهتة. تفاجأت بأنه لم ينفتح؛ فجدي تعود أن يترك بابه مفتوحا في النهار. دفعته عدة مرات قبل أن أطرقه. فتحت جدتي الباب، بدت حزينة، وقبل أن أسأل أخبرتني أنها تعمدت إقفال الباب بالمفتاح لأن جدي نائم، كما أخبرتني أن حالته الصحية قد ساءت. توجهت مباشرة إلى غرفة الجلوس أو "القهوى" كما تسميها جدتي؛ لأن جدي تعود استقبال أصدقائه الذين يأتون من دون سابق إنذار ليلعبوا "البارتشي" هناك في تلك الغرفة الأنيقة التي توجد أمام المطبخ، وليشاهدوا مباريات كرة القدم، ويستمعوا إلى حكايات جدي عن طنجة الدولية، لكنه لم يكن يحكي لهم عن "لُولاَ"، كنت الوحيدة التي تمكنت من فتح الباب السري في ذاكرته. تركته يُشْرِعُهُ على مصراعيه، وحين يفعل ذلك كان يجعل ما يستعيده يمشي ملتصقا بالأشخاص، وبالأشياء التي تكتظ وراءه. كنت أتساءل أحيانا: كيف لرأس أن تتسع لذاكرة بهذا الحجم؟ كان جدي نائما تحت شرشف وردي كفساتين "لُولاَ" واضعا رأسه على طرف مخدة بيضاء؛ وكأنه في لاوعيه يريد أن ينزلق، ليغطس كليا في بحره الوردي. جلست أتأمله. لاحظت أنه صار أكثر نحافة من ذي قبل. أخبرتني جدتي التي جاءت بـ"صينية" الشاي أن قيلولته صارت طويلة جدا تتجاوز أحيانا أربع ساعات. كانت تتكلم بصوت يشبه الهمس. أصغي إلى ارتعاشاتها الداخلية، وهي تصف لي حالته. حاولت أن أخفف عنها على الرغم من شعوري برعب يقبض على روحي، ويقضمها كما

فار جائع. اقترحت أن نأخذه إلى المستشفى، هناك قد يفهمون حالته، لهم من المعرفة والوسائل ما يخففون به من حالته التي تزداد سوءا كل يوم. ارتخت ملامح وجهها المشدودة من فرط الخوف عليه، ومن أن يزيده المستشفى انحدارا نحو النهاية. لم تُجب، اِلْتَفَتْ على الموضوع، لم أُرِدْ أن ألحّ. صبَّت الشاي، بعد أن ناولتني الكاس أتبعته بصحن صغير به بعض الحلويات من أصناف مختلفة، "الكعاب"، و"الغريبية"، و"الفقاص"، لم يفتها أن تشير إلى أنها من صنع يديها، وأنها هيأتها لجدي لأنه يحبها، كنت أراقب يديها، وهي تحاول رفع كأسها، كان بها ارتعاش خفيف، جدي لم تنهزم حركات يديه، وإنما شيء داخلي بدأ يثقل على حيويته، ما هو؟ لم يكن ممكنا إلا أن أتمنى له الشفاء، حالة جدي انتقلت بي إلى داخلي المشوش، كيف لي أن أسكنه؟

الإحساس بالنهاية

هل أنا واثقة من التوقيت بالضبط؟ أتذكر السنة، سنة 2007، لكن الشهر؟ لا أستطيع، كل ما أعرفه أن طيور السنونو بدأت تعود من هجرتها، كان عليَّ أن أرافق جدي إلى المستشفى، كان القلق على وجه أمي له صبغة لون صدئ، أما جدتي فكانت مثل من يخفي هزيمته في عيونه، بينما أنا كنت أسبح في عالم آخر، أفكر في ما سيصيبني لو أن القدر سلبني جدي الذي يمثل لي ذاكرتي التي تحتضن حكاياتي، أعرف أنني فتحت عينيّ الصغيرتين فلم أجد رجلا في عائلتي سواه، لطالما منحني حنان أبي، ساعدني على المرور إلى الحياة بأقل الأضرار، لطالما حاول أن يمنحني قوته.. اليوم يرقد جدي في المصحة مربوطا بأسلاك دقيقة تصله بالحياة، يضعون كمامة شفافة فوق أنفه ليتنفس.. تساورني الكوابيس، خفت أن تسقط الكمامة فينقطع حبل الحياة، ويحلق جدي وراء أبي ليصاحبه في رحلته السديمية، حاولت أن أقنع الممرضة بالمبيت مع جدي، رفضت متعللة بحاجة المرضى الآخرين إليها، أما الطبيب فلم يهتم، اكتفى

بأن حدد لنا مواعيد مضبوطة لزيارته، منحنا قائمة صغيرة تضم بعض وجبات الطعام: خضر مسلوقة، دجاج مسلوق، سمك مشوي.. فواكه معينة بمقادير محددة: الموز، التفاح، البرتقال... إلخ، كل شيء ينبغي ألا يتعدى النصف، كما أوصى بالتخلي عن الملح .. منذ اليوم الأول لدخول جدي إلى المستشفى حرصت على إعداد طعامه بيدي لأنه الخيط الواهن الذي يوصلني بسماء طنجة وحكاياها.

في اليوم السابع من ولوجه المصحة، وبينما أعد وجبته المسائية، أطبخ بعض الخضر الطرية، وأجهز قطعة دجاج لأقوم بسلقها.. سمعت صوت طرق عنيف. ركضت إلى الباب مسرعة، أسمع نحيب جارتنا مريم، أفتح الباب، ترتمي في حضني. جارتنا مريم تلطم وجهها بقسوة، وتصيح، أحاول أن أتبين مشكلتها، أتخيل حجم ألمها. شلالات من الدموع تنهمر من عينيها.. تصرخ بهستيرية، أخبرتني بصعوبة أن انفجارا كبيرا حدث بالمدينة، وأن ابنها كان على مقربة من الحادث، سمع صوت ارتطامات متتالية، ورأى غبارا كثيفا لوث سماء طنجة، ظل يعاين المشهد وهو متسمر في مكانه، مأساة أصابت ذاكرة طنجة، فمحت جزءا منها.. "عاد ابني إلى البيت مدمرا، يجر خوفه وارتعاشاته، الحمد للـه أنه مازال على قيد الحياة، الحمد للـه، إنه ضوء عيني.." تقول الجارة مريم.

لجارتنا مريم ابن وحيد تخاف إصابته بمكروه، رغم سنواته

الأربعين. نشأ ابنها مدللا، يتقن الاهتمام بمظهره، وغالبا ما يضع كريمات في شعره، يتعطر جيدا، ويقصد كورنيش طنجة ليلتقي صديقاته، كم مرة صادفته وهو يتسكع مع بنات المدارس، لكنه لم يكن يبالي بأحد، كلما التقينا في الكورنيش يصطنع ابتسامة الظافر بصيد ثمين.. مريم وابنها يسكنان في الطابق الرابع من البناية التي نقطن فيها، أعرفهما منذ الطفولة، حيث حرصت جارتنا مريم على زيارتنا بشكل متكرر، أمي استلطفت رفقتها ففتحت لها قلبها، هي تحتفظ بجزء كبير من تاريخ العائلة الذي لا أعرفه. لم يسبق لي أن رأيت أحدا من أقربائهما يزورهما. يحكي جيراننا في الطابق السابع، وهم أقدم سكان بنايتنا أن بيت خالتي مريم تعود ملكيته لكاتب أمريكي معروف، وأنها كانت على علاقة به، ويؤكد سكان الطابق الأخير من البناية، وهم أيضا من أقدم سكانها، أن خالتي مريم اشتغلت في فندق فاخر، وهناك تعرفت عليه، توطدت الصلة بينهما، صارا حبيبين، فأثمارا وليدهما.. مريم فقدت الاتصال بالأمريكي قبل أن يرى وليدها النور، سمعت من كثيرين أن الأمريكي داهمته سكرات الموت وهو يتسكع في حانات "ريو دي جنيرو"، الموت الذي طرق بابه لم يكن فجائيا لأنه ظل يشتكي من ألم يعصر قلبه، مات ولم يعلم أن له ابنا من مريم، وقبل رحيله بأيام تكلفت سفارة بلده بنقله إلى وطنه أمريكا. "الأمريكي يهوى السفر على متن البواخر، وفيها يسجل رواياته" يقول جارنا الذي يقطن في البيت المقابل. لذلك فإنه

يتوقع أن اختفاءه كان بسبب علاقة قوية بمدينة ما، ربما هي "ريو دي جنيرو" أو مدينة بطعم آخر. تؤكد أمي التي لا تعرف هذا الكاتب الأمريكي إلا من خلال ما يسرده جيراننا، أنه كان يحب خالتي مريم كثيرا. لذلك لم يتذكر غيرها، وهو يكتب وصيته في مستشفى New york presbyterian بنيويورك. وهي الوصية التي انتشلت خالتي مريم وابنها من "السوق الداخلي" وقذفت بهما إلى بنايتنا في "البولفار". لا أحد من سكان البناية يتذكر اسم هذا الكاتب، وفي ظل تكتم خالتي مريم وتهربها من الحديث في الموضوع بقي اسمه مجهولا؛ والأغرب من ذلك، هو أن كل سكان بنايتنا، وسكان البنايات المجاورة كان ينادون ابن الخالة مريم بـ"النصراني" رغم ذهابه إلى المسجد كل جمعة، فلسان مدينتنا لا يرحم، كلما اكتشف ثقبا إلا وحاول الانسلال منه، لسان مدينتنا يغطي خواء كبيرا ينتشر في الشوارع والحارات. ولأنني مستمعة جيدة فلطالما سمعت حكايات كثيرة تلوكها الألسن عن خالتي مريم وابنها، حكايات متضاربة، تحاول اختراق المجهول، وحدها ذاكرة الخالة مريم تختزن الحقيقة، أغلقت نوافذها بإحكام، ووضعت عسسا على مملكة حكاياها، أتقنت المناورة لتستمر سؤالا مبهما كحال مدينتنا طنجة التي لا تبوح بأسرارها.. وعلى الرغم من ذلك ظلت المدينة تلوك سيرتها كل مساء، لا تهدأ، حتى في اللحظات التي تتعب فيها من حكاياها العلنية والخفية.

حالما تخلصت الخالة مريم من حالتها الهستيرية، هنأتها على

سلامة ابنها ثم ودعتها، وأقفلت الباب، لأعيد ترتيب الحكاية في ذاكرتي حتى لا أنساها.. تركتها تقبع في منطقة جلية منها، حتى إذا ما استدعيتها عادت من تكلفة، أو عناء، لساني يحرضني كي أبدأ في سرد الحكاية للآخرين.. ألجمه، يتوارى قليلا، أؤجل نزوته إلى حين لقائي بأمي.. لعلها تمنح الحكاية وضعا آخر، فتصير منتفخة بالقدر الذي يسمح لها بأن تنتقل إلى سكان البناية، فتصير جزءا من ذاكرتهم، ومن تاريخهم.

أحسست باختناق شديد وأنا أكاد أجهز وجبة المساء لجدي، شعرت بالحزن، ارتديت ملابسي، إحساس بالفقدان يشل أطرافي، وللحظة تخيلت موت جدي، أخذت الهاتف المنزلي. ركبت رقم المستشفى. أخبرتني الممرضة أن حالته مستقرة، لكن تلك الأحاسيس المقلقة لم تختف. وضعت ما حضرته في حقيبتي اليدوية بعد أن لففته في ورق الألمنيوم، ارتديت حذاء أسود من دون كعب، يشبه كثيرا أحذية راقصات الباليه حتى لا أزعج مرضى المستشفى. يبدو أن راقصات الباليه يتعمدن ارتداء أحذية دون كعب حتى لا يزعجن القلوب التي يرقصن على ساحتها في مستشفى الفن الكبير قلت في نفسي. أغلقت الباب بحذر. ضغطت على زر المصعد، ثم وضعت يدي على صدري محاولة التخلص من تلك الأحاسيس التي صارت مقلقة للغاية. وصل المصعد قادما من الطابق الأرضي فتحت الباب، ولجت المصعد. لا أعرف إذا كان المصعد ينزل ببطء غير مألوف

في تلك اللحظة أم أن إحساسي بالزمن قد تغير؟ فـ"بعض الأحاسيس تسرعه، وبعضها الآخر تبطئه" كما يقول "جوليان بارنر" في رواية "الإحساس بالنهاية". خرجت مسرعة من البناية، توجهت إلى رصيف الشارع الرئيس؛ حيث يمكنني إيقاف سيارة أجرة. سمعت رجلين يتحدثان عن شيء مهول. هو ذاته الذي أخبرتني به الخالة مريم، لكن هذه المرة كان في المشهد جثث، كم عددها؟ ما الدافع؟ كيف حدث ذلك؟

ما زالت أحداث 16 ماي الدامية من سنة 2003 عالقة بذاكرتي، ولم أعرف لماذا احتلت آسية الحيز الكامل منها. "آسية" إحدى الصديقات الأقرب إليّ، كانت تدرس بجامعة عبد المالك السعدي بمرتيل، آلمتني قصتها، ذهبت إلى مكان الحادث عقب التفجير، بحثت عن أبيها وسط الأشلاء، فلم تستطع تمييزه من بقية الجثث الممزقة، عجزت عن لم شتاته ووضعه في قبر يليق به، كانت أطرافه وأحشاؤه قد تناثرت في مدينة الدار البيضاء، أو تناثرت المدينة فيه، بكته آسية، ولم تَلُمْ سوى دموعها التي ظلت دموعا، ولم تستطع أن تثأر لأبيها.

عقب ذلك ستقضي "آسية" ستة أشهر في مستشفى "مايوركا" للأمراض النفسية بتطوان. أذكر أنني زرتها في المشفى، تأسفت لحالها، فتاة تشبه زهر الرمان، رهيفة الإحساس، دموعها مؤهلة للانفجار حينما ترى أو تسمع ما قد يحرك براكينها الخامدة، لطالما

بكينا معا وأنا أمر في نفق "مراد" المظلم، كانت وسادتي التي تجفف دموعي..

"آسية" التي كانت ترتعش، وتغلق أذنيها، من الخوف إذا ما ضرب الأستاذ المحاضر السبورة بيده إشارة إلى ضرورة التزام الصمت. ستصبح أخرى غير تلك التي ألفناها، فبعد خروجها من مستشفى الأمراض النفسية، ستطل علينا بشكل جديد، "آسية" ستنزع غطاء رأسها، ستنزع لباسها المحتشم، الصباح الذي ستطأ فيه الكلية، سيسيل لعاب كثيرين، احتفاء بشكلها السافر ومكياجها المبرح، مرت من أمامي، ابتسمت وأكملت الطريق، لحقتها، أحسست ببرودتها، وكأنها تعوض فاجعتها بالتعري أمام أعين المتلصصين، أصبحت "آسية" حديث الجامعة، عرفت من الأصدقاء أنها مازالت تسمع الانفجارات في الأصوات؛ في محركات السيارة ومنبهاتها، وفي صوت الرعد، وفي أية فرقعة مهما كانت خافتة. تنطوي على نفسها، تعد جروحها، تخفي رأسها، تغلق أذنيها، وتجهش بالبكاء. تحاول الانتقام من جسدها.. كانت تأتي كل يوم إلى الجامعة في سيارة جديدة مع أب جديد. آخرهم كان رجل أعمال يكبرها بثلاثين سنة، يعمل في مجالات مختلفة: تصدير السمك، والبناء، وتربية المواشي وربما تصدير القنب الهندي. تحكي لنا عن تفاصيل علاقتهما؛ عن الفنادق والمطاعم الفاخرة التي يرتادانها، وعن عطر "212" و"FLORA BY GUCCI" و"NINA RICCI"، والشكولاتة البلجيكية

والسويسرية التي يهديها إياها، وعندما كانت الفتيات تسالنها عن تفاصيل خاصة جدا في علاقتها به، ترتبك، وتطقطق أصابع يديها، وتقول "كل شيء له ثمنه"، تضحك عاليا كي تخفي الألم الذي تعيشه كل منطقة من جسدها. فتيات الحي الجامعي يغبطنها على حظها السعيد ويحسدنها في السر، ولا يتوقفن عن الأسئلة، عن تفاصيل علاقتها برجل الأعمال الذي ينتظرها كل يوم في سيارة لا تشبه السابقة. كانت تغريهن إلى درجة أنني كدت أصدق ضحكاتها المزيفة قبل أن أصادفها ذات ليلة في "الدوش" ملتحفة فوطة بيضاء، وأرى الخدوش والكدمات على جسدها، فهمت أن "آسية" لم تكن تستحم، وإنما كانت تغسل جراحها.

أخبرتني بعض الصديقات بعد سنوات من انتهاء مرحلتنا الجامعية أن "آسية" صارت زوجة ثانية لذلك الرجل في السر، وقد طعنته بالسكين بعد سنتين من زواجها لأن ميولاته الجنسية السادية تضاعفت، صار يحرقها بالشمع الذي يزين غرف الفنادق التي كانا ينزلان بها.

في تلك الليلة كانا في بيتهما البحري بمركب "أطلانتيكا" بعدما أقنعته بأن بيتهما البحري أجمل من كل الفنادق. لم تكن تنوي طعنه بالسكين لولا أنه فاجأها بشموع أحضرها معه. هكذا تقول الحكاية التي لاكتها الألسن. ما الذي كان يدور في بالها وهي تطعنه طعنة تلو الأخرى؟ أكانت تفكر في الحروق الموشومة على جسدها أم تفكر في النار التي أحرقت أباها وطفولتها؟

دخلت "آسية" السجن لتعيش احتراقها. لا أحد يزورها سوى أمها، عبثا حاولت أن تخفف من آلام جروحها، شقيقها الذي استفاد من احتراقها، ظل يفر من حكايتها، يتبرأ من أفعالها ويتنكر لوجودها، ظل يتهرب من الأسئلة المتلصصة، بعدما أصبح يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. حكت لي صديقتنا المشتركة أنها التقت به، وفاجأها منظره الجديد. ظل رجل شاحب يمسك سبحة في يده اليمنى، اليد نفسها التي لم تتوانَ في قبول مبالغ مالية تفوح منها رائحة الحريق، بينما يده اليسرى تمسد لحيته، وعيناه ترمقان الوجوه بحذر، أما آسية فكان عليها تتعلم كيف تمحو ذاتها.

أشعل سيجارتي الأخيرة، أعب نفسا عميقا، عيناي تدمعان بسبب الدخان الكثيف الذي لاعب رموشي، أقهر شلالات لاإرادية، أجففها، أجتثها حتى لا تفضح هشاشتي، أدعك عقب السيجارة، وفي سري ألعن بخبث "مراد" الذي أوهمني أنني قد أصير "سيمون دي بوفوار" إن أنا أدمنت السجائر، وطيف آسية مازال يعشش في رأسي، ويحثني كي لا أمحو ذاتي.

هي الحرائق التي تشتعل لتلتهم ما تبقى منا، الحرائق التي التهمت جسد والد آسية، والحرائق نفسها التي وشمت جسد آسية بجروح غائرة، والحرائق نفسها التي تُلهب داخلي، ومازالت تنخر عظامي، هي الحرائق التي تأكل المدينة في صمت، ولأن الحرائق يعقبها

الانهيار، فمازال جزء مني يتهاوى كلما سقطت حكاية من ذاكرتي المثقلة، كم من سحابة نحتاجها لنطفئ حرائقنا؟

في ذلك اليوم خرجت إلى الشارع لأشهد فجيعة المدينة، وأفسح لها مكانا عريضا في ذاكرتي، سمعت رجلين يكرران كلمة "تياترو ثرفنطيس" مرات عديدة، بسرعة خاطفة ودون أن اشعر، صرخت في وجهيهما- وما دخل "تياترو ثرفنطيس" بالانفجار. سألت بكل ما في صوتي من قوة "ليس انفجارا" قال أحدهما "ليس هناك أي انفجار" أكد الآخر، والجثث؟ أهي من صنع أوهامي؟ ربما.. أضاف الرجلان بصوت واحد "كنا نتحدث عن انهيار مسرح ثرفنطيس". لم أصدق، شعرت بالعالم كله يلف حولي. فكرت في جدي، فكرت في "لُولاَ"، استعدت ما يمكن استعادته من حكايات جدي دفعة واحدة. ركبت سيارة أجرة. طلبت من السائق أن يأخذني إلى "تياترو ثرفنطيس" لأتأكد مما إذا كان ما يزال قابعا في مكانه، تمنيت أن يكون الخبر مزحة. السائق الذي طلبت منه أن يقلني إلى "تياترو ثرفنطيس" رفض أن يأخذني إلى هناك، وحذرني من خطورة التردد على المكان، مؤكدا أن انهيارا كبيرا حدث وما زال الوضع خطيرا منذ الصباح، وأن رجال الوقاية المدنية يمنعون المواطنين من الاقتراب من المنطقة، وأنهم وضعوا حواجزا حديدية عند مدخل الشوارع المؤدية إلى المكان، ولوحات تحذيرية. نزلت من سيارة الأجرة، وبدأت أركض في الشارع كالمجنونة وصلت، إلى "سور

المعجازين"، كانت هناك الحواجز منصوبة، اختلطت الصور في ذاكرتي بصور أخرى أبدعتها مخيلتي إلى درجة لم أعد أميز فيها بين ما يحكى وما أعيشه وأتخيله. رأيت "لُولاَ" في فستانها الوردي تطلع من بين الأنقاض.. رأيت جدي يمسك بيدها ويتخطى بها الحواجز الحديدية. كان جدي وسيما وأنيقا، يرتدي جينزا أسود، وقميصا أبيض، شعره طويل ومموج كما كنت قد رأيته في إحدى صور شبابه بالأسود والأبيض، لكنه لم يكن يبتسم كما في الصورة، كانت الملائكة الملتصقة بواجهة "مسرح ثرفنطيس" تطير، كنت أركض في الاتجاه نفسه، اختفى آخر الملائكة من سماء طنجة، كنت حينها على الرصيف المقابل أطير بلا أجنحة. "أنا أيضا أطير فكل حي طائر" يقول محمود درويش في قصيدة "سأحلم"؛ لهذا لم أتوقف عن الركض. أطير على الرصيف هاربة من مدينة هجرتها الملائكة. أبحث عن بقايا ذاكرتي الصدئة علها تنقذني من وجعي، وجع الانتماء إلى بناية مهترئة وشمت روحي، حولتني إلى عاشقة لسراب كلما ابتعد ركضت خلفه، وحده جدي كان ينتشلني من ضياعي، ليخفف ألمي، جدي يحتاج إلى يدي البيضاء لترتب شعره الأشيب، لتنتشله من قاع البئر، حتى يعود إلى الحياة، ليشهد فاجعة "تياترو ثرفنطيس"، وكي يعارك إحساسي بالنهاية.

رسائل البحر

"عادي إنك تسمع موسيقى بالصدفة من بيت زي باقي البيوت، لكن الغريب هو سبب ارتباطي بالموسيقى دي، يمكن عشان كنت بحب الموسيقى، ولا عشان جمال العزف، ولا متعة التلصص، كإنك بتقرا رسالة مش موجهة ليك إنت من إنسان متعرفوش، ولا علشان طعم الحزن والألم، وأحيانا الغضب لي حسيتو في الموسيقى كانت نفس المشاعر لي بحسها جوايا".

هذا ما قاله "يحيى" بطل فيلم "رسائل البحر" لـ"داوود عبد السيد". كنت حينها في الصف الأخير في "سينما باريس"، لا أعرف لماذا أفضل دائما المشاهدة من أبعد نقطة ممكنة، ربما لأن المسافة المحتملة تجعلنا أكثر حميمية مع الأشياء كلما ابتعدنا عن الأحداث، والأماكن، والأشخاص، الذين يزدحمون في الذاكرة، كلما صرنا أكثر حميمية معهم كلما صاروا منا. هناك في منطقة قصية من الذاكرة، في علبة افتراضية يخبأ كل واحد منا كنزه، حتى الأشياء البسيطة تختبئ هناك بعد أن صارت بفعل المسافة الزمنية كنزا لا نحتاج إلى الحفر

تحت التراب لاستخراجه، يلبس في كل مرة هيئة ذكرى. الذكرى هي رسالة أيضا لكنها ليست كرسائل البحر التي وجدها الصياد في الفيلم مصادفة؛ رسالة موجهة لشخص آخر، وبلغة أخرى، وفي زمن آخر، وربما إلى شط غير الشط الذي وجدها عليه. الذكرى رسالة موجهة إلى حاملها الذي قطع بها المسافات من الماضي إلى الحاضر بلغة لا يجيدها سواه. الذكرى لا تخطئ الشط أبدا. الذكرى رسالة مؤجلة لأنها مكتوبة بالوجع. الموسيقى، رسالة أيضا كما قال الصياد، رسالة غير مشفرة، يترجمها كل شخص إلى لغته الخاصة، لغة ذاكرته، وألمه، وغضبه، ومشاعره.

لف "كريم" ذراعه حولي بقوة كأنه يمنعني من هروب محتمل في كل لحظة، لا أعرف كيف يستطيع هذا الكريم قراءة لغتي الداخلية بكل هذا اليسر. لم يكن "كريم" عازفا، وحدهم العازفون يستطيعون قراءة لغة الذاكرة، ولغة الإحساس؛ تلك اللغة الخاصة جدا، نحس بشيء خفي يجر الحبال الصوتية للروح فنتكلم دون صوت، ويسمعوننا دون صوت. هل الحب يحولنا إلى عازفين؟ ألقيت برأسي على كتف "كريم" بتثاقل. لم يكن الهروب يراودني وأنا ألقي برأسي على كتفه، صار رأسي بحجم الكرة الأرضية، مخدة عملاقة محشوة بالذكريات.

الجو بارد بشـــكل غير اعتيادي، إلا أن العرق كان يتصبب من

جبهتي بغزارة. أهو عرق أم مطر؟ مطر ذلك اليوم الذي كنا نمشي فيه أنا و"مراد" دون مظلة، غير آبهين بالناس وبالبلل. يومها كنت أضع رأسي على كتفه تماما كما أضعه على كتف "كريم". هل أخون "كريم" وأنا أفكر في "مراد"؟ خيانـــة ذهنية؛ خيانة للحظة، وللغة الســرية التي أتكلم بها دون صوت، ويسمعها "كريم" دون صوت. "مــراد" خائن أيضا، يخونني مع زوجته، ويخون لغتنا الســرية.. يخون المطر الذي بللنا يوما، والذي يبللني الآن وحدي.

"أنا بتهته وأنا بكلم الناس. بس مبتهتهش وأنا بكلم نفسي. بس أنا مش عاوز أتكلم مع نفسي عايز أتكلم مع الناس".

يقول الصياد "يحيى"؛ فأكتشف أنه يشبهني. يحيى مثلي يتحدث بطلاقة مع نفســه، ويتعثر حين يكلم الآخرين. غير أن تعثري في الكلام وصل إلى مرحلة متقدمــة: مرحلة الصمت.. صمت أخبئ الحروف بين ثناياه كي لا تركب اســم "مراد"، صمت أرتديه لباسا تنكريا كي لا تعرفني الأرصفة التي شهدت حماقتنا، كي لا تعرفني قاعات الســينما والمقاهي.. صمت أرشه عطرا كي لا يشم البحر رائحتي وحيدة دون أن تمتــزج برائحته، صمت أرتديه قناعا كي لا يربك حزني المرايا، صمت أخيطه على مســامي كي لا تخرج رائحته التي تسللت إلى قلبي ذات عناق..

مازال قلبي يشم تلك الرائحة.. ما تعجز عن حفظه الذاكرة يحفظه القلب.. القلب ذاكرة أيضا ذاكرة متطورة.. هل أنا أحلام؟ تلك التي

كانت تتكلم، وتغني، وتضحك عاليا كالبحر حين يهتز مقهقها..

لا أعــرف لماذا كنا نضحك عاليا كلما التقينا، وكلما تكلمنا عبر الهاتف، نضحك بشكل هستيري. العالم ببحاره، ومدنه، وعواصمه وجســوره أصغر من ضحكاتنا. لا أعرف لماذا فقدت قدرتي على الضحك الآن؟ لا أعرف لماذا كنت أحس برعشــات قوية كلما رن الهاتف؟ رعشــات مختلفة عن الرعشات التي أحس بها الآن كلما رن اسمه في ذاكرتي. ما أحس به الآن هو ما يحس به الماء، وهو يتشــبث بالرمل على الرغم من أنــه يبتلعه في كل مرة. لا أعرف ما الذي دفعني إلى السفر إلى مدينة "الدار البيضاء" لتوديعه على الرغم من وجود تلــك الغريبة بيننا؟ لم تفارق يدي يده يومها. كان القطــار مزدحما، وكان "مراد" يجلس أمــام النافذة يودع الأنهار، والأشجار، والمدن. ينظر إليها بحزن يشبه الرجاء، وكأنه يستبقيها ليأخذ آخر صورة لها بعدســة ذاكرته. القطار يمشي بسرعة يحملنا إلــى المجهول.. القطار حقيبة بعجلات تجرها يد القدر الخفية التي تكوينا جيدا قبل أن ترتبنا في العربات. لم تفارق يد مراد يدي، ظل ممســكا بها طوال الوقت، حتى حين أردت فتح الحقيبة لآخذ كيسا وضعت أمــي فيه بضع تفاحات لنقاوم بهــا الجوع خلال الرحلة. بضع تفاحات تتواطأ مع حبنا. حقا لماذا يتخذ التفاح شــكل القلب؟ هل لأن القلب كان أول من خضع لنظام الجاذبية؟ هل لأنه سقط قبل تفاحة نيوتن؟ ســقط حين انجذب. كنت أقضم تفاحة حمراء، وأفكر

في تفاحة قلبي التي تسقط. وكان هو نيوتن الجديد يكتشف الجاذبية تحت شجرة الحب.

لم أنتبه إلى بكائي إلا حينما مسح مراد دمعات تزحلقت فوق خدي بأطراف أصابعه، وليس بالمناشف كما تعود أن يفعل. كنت أبكي، وأقضم التفاح، أتحسس أصابعه. وكانت هي تجلس في الكرسي المقابل تقرأ رواية "For Bread Alone" أو "الخبز الحافي" لمحمد شكري. هادئة جدا كأنها في قطار آخر لا ترانا، وكأنها خارج المكان، وخارج الزمن، وخارج المشهد، وخارج الرواية لا تسمع أنين الخبز داخل الرواية، وخارج الرواية في الكرسيين المقابلين لها. أبكي، وأقضم التفاح، أتحسس أصابعه، وكانت هي تجلس في الكرسي المقابل محايدة، تشبه ذلك السارق اللطيف الذي يفرغ محتويات حقيبتك، ويتكرم بإرسال بطاقتك الوطنية، ووثائقك إلى عنوانك البريدي. كانت تتكرم على قلبي الذي سقط بمساحة حرة كي يتدحرج جيدا. أبكي، وأقضم التفاح، وأتحسس أصابعه، أراقب قلبي وهو يتدحرج، يتضاءل ليصير تفاحة فاسدة.

كيف تخرج الدموع من الذاكرة؟ كيف خرجت دموعي من القطار لتبلل قاعة السينما؟ أخرج كريم مناشف الكلينيكس من الجيب الداخلي لمعطفه، ومسح دموعي معتقدا أن بكائي شفقة على "أمين" صديق "يحيى الصياد" الذي سيضطر إلى إجراء عملية جراحية تفقده ذاكرته. هرب "أمين" من المستشفى بعد أن تمدد في غرفة العملية استعدادا

لإجراء العملية، ظل يركض مرتديا بلوزة العمليات الزرقاء، يركض باتجاه باب المستشفى ثم باتجاه البحر، لحق به "يحيى" الذي كان ينتظره في قاعة الانتظار، نزع يحيى معطفه، وألبسه إياه.

ـ "أمين لو معملتش العملية هتموت يا أمين..

ـ لو عملت العملية، وفقدت الذاكرة، لو شفتك مش هعرفك..

مش هعرف حد يعني مش هبقى أنا هيبقى واحد ثاني اتولد من جديد بس مش أنا..

أمين لـــي عارفينو أنا وإنت حتى لو عاش بعـــد العملية بردوه هيموت..

هيبقـــى حد ثاني بنفس الشـــكل، ونفس الجســـم بـــس من غير ذكريات".

وكان أمين يتحدث بلسان طنجة التي صارت طنجة أخرى بعد سقوط "تياترو ثرفنطيس"، الأزقة هي هي لم تتغير، الشوارع منهمكة كعادتها تتلصص على المارين، البحر يعارك اليابسة، طنجة التي أعرفها هي هي تعشق هجنتها، ترفض التذكر. صديقي "كريم" يمرر منشفا ورقيا على خدي. المنشف متواطئ مع أصابع "مراد"، يفصل بين أصابع "كريم" وخدي، تاركا مساحة لأصابع "مراد" التي تخرج من الذاكرة. كما خرجت حكايا جدي و"لولا" من ذاكرتي لتلعن انهيار "تياترو ثرفنطيس"، ولتبعث برسائل ملعونة إلى بحار مجهول.

نهر بادس

المشـــهد البحري.. رائحة النعنـــاع.. نهر صغير بأمواج هائجة يجري في ذاكرتي.. أخرج ســـلال الزهـــر التي حملها الزوار إلى جدي، أضعها عند باب الغرفة: ســـلة زنبق، وســـلة قرنفل، وسلة أقحوان، وســـلال بها خليط من الزهور؛ كل نوع من هذه الزهور له معنى. وحدها تلك السلال التي تحمل خليطا من الأنواع، خليطا من المعاني تشـــبه الإنسان الذي يمكنه أن يعيش وفي قلبه أحاسيس مختلفة، ومتضاربة أحيانا؛ الغيرة، ألم الفراق، الحب، النســـيان أو محاولة الإيمان بفكرة النسيان التي لا تتحقق أبدا. السلال خفيفة جدا غير أني أحسست بثقل معانيها. هل الزهور تتنفس مثلنا في الليل لهذا نختنق بوجودها؟ هل طرحها لثاني أوكسيد الكربون هو الذي يخنقنا؟ أم تلك المعاني التي تطرحها هو ما يخنقنا في الليل حين ننعزل عن العالم ونصغي إلى ذواتنا؟ كنت أخرج السلة الأخيرة حين أحضرت الممرضة الدواء. طلبت مني أن أوقظ جدي وأعطيه الأدوية بعد أن يأكل وغادرت. اقتربت منه كان متعبا ومنهك القوى. بلمسة خفيفة

على كتفه اســتيقظ، وكأنه انبعث من عالم آخر إلى عالمنا. كم يشبه النوم الموت كم يشبه الولادة. نكون أطفالا حين نولد، ونكون أطفالا أيضــا حين نصحو من النوم، حين نصحــو من موتنا المؤجل. كم يشــبه النوم الموت. تذكرت رواية "كأنها نائمة" لـ "إلياس خوري" التي افتتحها ببيت شعري لأبي العلاء المعري:

المَوتُ نَومٌ طَويلٌ، لا هُبوبَ لَهُ والنُّوم موتٌ قَصيرٌ، بَعثُهُ أَمَمُ

تذكرت الصفحة التي اعترف فيها الراوي أن الموت يهزم الشعر، وأن انتصارات الشعر على الموت عبر تاريخه ما هي إلا كذبة من الكذبات التي يكذبها الإنسان على نفسه، ليتحمل ويستمر معتقدا أنه انتصر. "كانت تعرف أن العدوَّ الأكبرَ للشعر هو الموت. ليس صحيحًا أن الشعرَ يستطيع أن يتغلب على الموت.. وظيفة الشعر أن يجعلنا نتقبل الموت ونتآلف معه، بحيث نعتقد أنَّه غَلَبَ وانتصرَ عليه، بينما هو في الحقيقة ابن الموت وصوته السري". تذكرت ذلك المقطع من الرواية، وقررت أن لا أكتب قصيدة رثاء أبدا حتى وإن تعلق الأمر بجدي؛ لأن الموت يعرينا من كل شيء. يعرينا من أقنعتنا، وكذبنا، وفساتيننا، وأرواحنا، وأمكنتنا، ويرسلنا إلى اللامكان، إلى الأسفل لنكون عظام يد الأرض التي تطقطقها حين تقلق، وما من شيء يقلق الأرض أكثر من الحروب؛ الحروب تسيء للموتى أيضا. كيف أكذب على الموت؟ كيف أسيء إليه؟ كيف أتواطأ مع الحروب؟ لم يأكل جدي سوى نصف تفاحة، وبعد إصرار كبير

وافق على أكل الياغورت دون سكر غير أن شهيته للكلام كانت مفتوحة. فتح نوافذ ذاكرته، فسمعت المعزوفات القديمة، وأقدام "لَوْرَا" و"آنا" تقرع الأرض في صحة الذاكرة، ذاكرة جدي. هذا الرجل الذي لم يكن وقتها جدي.. هذا الرجل الذي صار جدي، وذاكرة أخرى لذاكرتي.. هذا الرجل الذي منحني حواسه لأرى "تياترو ثرفنطيس"، وأشم رائحة "لُولاَ"، وأسمع المعزوفات القديمة. حكى كيف تطورت علاقته بـ"لُولاَ"، وعن الصداقة التي تحولت إلى حب، وكيف غيرت فيه "لُولاَ" أشياء كثيرة، ليس لأنها قادمة من غرب الكرة الأرضية، بل لأنها قادمة من غرب تفاحة القلب، ومن شرقها، ومن كل الجهات. حكى عن حرقة الفراق، بعد أن غادرت طنجة نزولا عند رغبة ابنتها الكبيرة، التي أعدت حقيبة صغيرة وضعت فيها دميتها المفضلة، وشرائط شعر، وصورة لأمها وأختها، كتبت رسالة باردة إلى أمها: "سأكون في غرناطة، روح أبي تناديني"، أغلقت الباب، استقلت أول طريق صادفها لتصل إلى غرناطة حيث طفولتها وروح أبيها. في ذاك اليوم أمطرت عينا لولا شلالات جارفة جعلتها تقتفي آثار ابنتها لتصل إليها، بينما قلب جدي ظل يعزف لـ لولا وهي تراقص السراب غير آبهة بنظرات جدي المستجيرة بها، حكى عن قريته القريبة من مدينة "الحسيمة" بالريف، وعن أبيه الذي أتى من البحر إلى البحر، وعن الرجل الريفي الذي يسكن عروقه، الذي أرغمه على الوفاء بالوعد. وعد قدمه إلى فتاة من

قبيلة "إبقوين". تلك الفتاة هي جدتي. كان أول لقاء لهما بالقرب من "نهر بادس". لم تكن تنظر إلى وجهها الذي يلمع في مرايا النهر كما فعل "نرسيس"، غير أنها غرقت في نهر الحب. فإما أن نغرق فينا أو نغرق في النظرة الأولى التي تشعرنا بالأمان . حين عبر لها عن إعجابه أدارت وجهها صوب النهر، كانت ترى وجهه في مرايا الماء؛ فغرقت في وجهه، وفي صوته الذي يغني للحب. هل يعقل أن يحب الرجل امرأتين؟ هل وعده لـ"يْمَّا لْوِيزا" هو ما منعه من الهروب نحو الحب؟ أم أنه لم يستطع، لأنه أحبها بصدق؟ أيعقل أن يكون داخل جدي رجلان؟ الأول يمارس حياته رجلا تقليديا يؤدي واجباته بشكل روتيني، ولديه حقوق مقابل التزامه بواجباته، ويخفي مشاعر الحب التي يكنها للفتاة التي التقى بها يوما ما عند "نهر بادس" وعشقها، والثاني يظهر مشاعر الحب نفسها أمام امرأة أخرى؛ لأن الحب هو الحب. الحب لا يرتبط بشخص معين. الحب طاقة نمتلئ بها، وما المحبوب إلا شخص اخترناه لنعرض أمامه اكتشافنا العظيم؛ لأنه يشبهنا أو لأنه مختلف كثيرا عنا، ويحمل الكثير من نواقصنا. قد يكون تحرر "لُولاَ" أحد نواقص جدي، شيئا من الأشياء التي افتقدها في بيئة محافظة؛ لذلك اختار أن يعرض أمامها الحب الشاهق القابع فوق أعالي روحه، وقلبه، وذاكرته، وذاكرة النهر.

"يوشيشم بابم شم عاذ تامزيانت"

لا أعرف لماذا تغني هذه الأغنية نفسها في رأسي كلما تذكرت حكاية "يما لويزا". "يما لويزا" ليست الوحيدة التي تزوجت، وهي طفلة. "يوشيشم بابم شم عاذ تامزيانت" تعني زوجك أبوك وأنت لا تزالين صغيرة .

"يوشيشم بابم شم عاذ تامزيانت" تغني الأغنية نفسها في بالي بصوت "فرقة إثران"، بموسيقى تهز منطقة خفية مني. أذكر يوم قام جدي بمساعدتي على فهم معانيها وحفظها، لم تكن الأغنية تعني له الشيء الكثير؛ لأن زواج الفتاة الصغيرة عند أبناء جيله أمر عادي غير أن ولعي بلغة الأجداد أسعده. كنت أغنيها، وأتخيل "يْمَّا لْوِيزا" تركض في "نهر بادس"، وضفيرتاها تطيران في السماء تركضان وراء سنواتها الاثنتي عشرة وراء طفولتها التي تهرب منها. كانت "يْمَّا لْوِيزا" البنت الوحيدة في أسرتها المؤلفة من أب وأم وسبعة أطفال، يعيشون على صيد الأسماك وبيعها في أسواق المناطق المجاورة، يضعها الأب في دلو، ويغطيها بثوب خشن مبلل، يرتبها في عربة خشبية يتناوب على دفعها الأبناء "حَمُّو" و"حْميدُو"، ويتكفل ببيعها "عبد القادر". و"موح"، و"مصطفى" و"نور الدين" يتوزعون على الأسواق، كل واحد منهم يقصد سوقا، وكانت الأم وابنتها "لويزا" تشتغلان في حياكة الزرابي، جدي الابن البكر لأسرة مؤلفة من أب وأم متوفية، وثلاثة أطفال ذكور، يعمل الأب نجارا، يصنع المراكب. أخذ الأب أبناءه إلى طنجة بعد أن تأزمت الأوضاع الاقتصادية بالمنطقة

وضربها الجوع.. كان جدي يكسب قوت يومه من مساعدة السياح في التعرف على المدينة، وفي صرف العملة عند الصرافين الذين كانوا يوجدون بكثرة في "السوق البراني". تحول بعد ذلك إلى مرشد سياحي محترف بعد أن تعلم الفرنسية والإسبانية والإنجليزية بفعل احتكاكه مع السياح، بالإضافة إلى عشقه مشاهدة الأفلام السينمائية مما ساعده على الحصول على وظيفة في "تياترو ثرفنطيس". أما "مْحنْد" و"محمد" فعملا في النجارة مع أبيهما بمحل صغير اكتراه في "القصبة". أصبحت "يْمَّا لْوِيزا" زوجة قبل الأوان، وأُمًّا قبل الأوان؛ زوجة لرجل يكبرها بعشر سنوات فقط، لكنه ظل دائما يتصرف بنضج، هي الأخرى تخلت مرغمة عن طفولتها، اختفت الدمى، صارت أما حقيقية لطفلين يتيمين هما "محمد" و"محند"، وحده والدها يطوي الزمن ليعيد إليها طفولتها وقريتها، هل كان جدي يشبه والدها حقا؟ أم أنها خلقت الشبه بينهما وصدقته كي لا تحس بوجع المسافات التي تفصلها عن نهر بادس؟ أتذكر حكايات جدي بألوان قوس قزح، سمعتها بمرارة وجدي يعارك شبح الموت، كأنه يروي ليعيش، حينما نروي ونحن على فراش الموت نروي بصدق، نروي لنتشبث بما عشناه، ربما نروي لتعيش ذكرياتنا، لنظل حكاية يلوكها الزمن بألسنة ليست ألسنتنا.

كنت أسدل الستارة بعد أن أسدل جدي ستائر الكلام ونام. لمحت

"يْمَّا لْوِيزا" تنزل من التاكســـي تكبلهـــا طفولتها التي تركتها عند نهر بادس:

"يوشيشم بابم شم عاذ تامزيانت"

"يوشيشم بابم شم عاذ تامزيانت"

تغني الأغنية نفسها في رأسي، وأنا أسدل الستارة على الليل، كما أُسْدِلَتْ الستارة يوما ما على طفولة فتاة بضفيرتين كانت تركض عند "نهر بادس"، وكما أسدلت الستارة على خشبة "تياترو ثرفنطيس" التي زُفَّتْ إلى الخراب على مسامع المدينة الغريقة. وأعي جيدا وصية جدي التي حملني إياها، راجيا مني أن يغسل بماء نهر بادس، وبمائه يسقى تراب قبره.

أدخن بقايا سيجارتي، أعود إلى ذاكرتي، أفتش عن جرح قديم.

جرح قديم

الجروح القديمة مذاقات مريرة، كلما تذكرناها تتفتح أوجاعنا، تتبــدى لنا جحيما يغلـــي داخلنا، يحرق ما تبقـــى من اخضرارنا، تختزلنا في كلمة واحدة "لو" التي كانت ســـتغير مصيرنا، لو كنت عرافة تقرأ الطالع لما غرقت في بركة آسنة، لو كانت حواسي تشم روائح المستقبل لما جلست في هذا المقهى، "لو" كلمة باردة نرددها بحزن ونحن نحاول تحسس جراحنا القديمة.

جرح "مراد" يراودني، يشجعني كي أبحث عنه، يستنجد ببياضي كي أرمم دماره الذي لا يشبه دمار "تياترو ثرفنطيس"، في غفلة مني وضعت اسمه على محرك البحث "google" وضعت اسمه بالعربية "مراد بحراوي" قادني إلى أقنعة لا أعرفها، وجوه بقسمات غريبة عني، فشلت في الوصول إليه، جربت كتابة اسمه بالفرنسية "mourad bahraoui"، فقادني المحرك إلى صفحة زرقاء، ولجتها بحذر، ذاكرتي تختزن لحظات الانكسار، أوقف ترددها، وأمعن في الإبحار داخل جداره، ألبوم صوره الفردية: صورته إلى جانب

"جسر غولدن غيث" وهو يتأمل الجزر الصغيرة الموزعة في بحر "سان فرانسيسكو"، صورته قرب "سد هوفر"، صورة ثالثة أمام "ممشى المشاهير" بـ"هوليود"، صورة رابعة وهو يحملق في التماثيل المنحوتة في "جبل رشمور"، أخرى أمام "تمثال الحرية".. صور كثيرة تكاد تغطي ولايات أمريكا جميعها، في الألبوم الثاني وضعت صوره رفقة زوجته الأمريكية التي لم يتغير شكلها كثيرا عن الصورة التي تسكن ذاكرتي، عيونها المتلصصة على قلبي، ابتسامتها الماكرة وهي تسخر من انهياراتي، يدها الغاصبة وهي تشيعني قتيلة في المطار، نعم إنها هي هي لم تتغير. صور رفقة طفلتهما في مدينة الملاهي، وصور كثيرة في مدن ودول وأماكن مختلفة : فينيزيا، ودبي، وإسطنبول، وبانكوك وأخيرا ببيت والديه في "المدينة القديمة" الذي حولاه إلى فندق، يكتظ بالسياح من جنسيات مختلفة، بدا البيت- الفندق من خلال الصور المنشورة على الإنترنت غير ذلك الذي اختزنته ذاكرتي، لم يكن كما أثثته خالتي "عائشة"، وحرص "با المختار" على أن يظل عابقا برائحة تاريخ لم يُكتب، لكنه كان مسجلا في الأشياء، وفي التزاويق، والتوريق، والفسقية، والزليج، والخشب المخرم، كل ذلك لم يعد ممكنا أن يظل كما كان، مراد كان له تاريخه الذي ينبغي أن يكتبه، التاريخ الذي يقاس باللحظة لا غير.

بعد تلصصي على حائطه الضوئي، لا أعرف كيف ضغطت

سبابتي اليمنى على زر طلب الصداقة، هل أسعى إلى صداقة "مراد"؟ أنا التي أعرف كل تفاصيل حياته، وتفاصيل جسده، والخلايا المشكلة لدماغه وقلبه، أبعث بطلب صداقة مجاني ليحتفي بدماري، ليوقظ شريط ذكرياتي المفجعة بشالها الأحمر وسكاكينها التي وأدَت حياة جزء كبير مني، ذكرياتي وأنا أخطو خطوتي الأولى في طريق الحب، ذكرياتي وأنا أقدم قرابيني لمعبودي البشري، ذكرياتي وأنا أتيه لمدة ست سنوات، ذكرياتي وأنا أحمل دموعي لأبكي بحرقة في مطار محمد الخامس.. كل هذه المشاهد تتدفق دفعة واحدة، تتمكن مني، توزعني إلى نصفين كطنجة المنقسمة إلى روحين: طنجة القديمة وطنجة الحديثة.. حينما استيقظت من سفري في وجعي، لمحت نقطة خضراء تلمع تنبئ بتدفق ثلاث عشْرة رسالة كتبت باللغة الانجليزية: "مساء الخير أحلام، كيف هي أحوالك؟ أتمنى أن تكوني بخير.. أنا مقيم في طنجة.. لا ندرك قيمة الأشياء إلا حينما نفقدها، سرت في طريق ملغومة لأكتشف زيفي.. قد لا تصدقين.. طيفك لم يفارقني للحظة وأنا أدرع المنافي لأصل إلى الوهم، غصة ندم عميق أجترها كل ليلة حينما أختلي إلى ذاكرتي، أعرف أني مذنب، لا يحق لي أن أبرر ما لا يبرر، أدرك حجم الفجيعة التي ارتكبتها، فجيعة غير قابلة للترميم، فجيعة شبيهة بزجاج نافذة كسر، فيستحيل لحمه من جديد. ما دمت تقرئين حروفي قد يتسلل شعاع الغفران إلى قلبك الأبيض، أنت التي علمتني دروس الحياة، ولم أكن أمتلك الشجاعة لأبوح بذلك..

لا أحن إليك فحسب، بل صرت أيضا ضرورة لا غنى عنها.. زوجتي مجرد جسد بارد، آلة لا تتقن سوى مراجعة الفواتير، والادخار، والمزيد من الادخار. إني أراك فيحجم الافتقاد الذي أنا صريع له.. عبرك أرى كل الأمكنة التي مررت بها صحبتك، وشهدت فصولا من أحلام لم تتحقق. لا أقول هل تذكرين كل ذلك؟ ربما كنت تفعلين أو لا تفعلين، لكن التفاصيل لا تنمحي، ستظل ملتصقة بالذاكرة، سواء آلمتنا أم لا". رانت لحظة صمت ثقيلة.. أحسست خلالها بأن شيئا ما لا تقوله الكلمات يملأ فراغ لحظة الصمت هذه، قال بعدها: لا أعرف كيف أقول، ثم صمت مرة أخرى، قبل أن يقول: "هل فهمت ما أردت أن أقوله دون أن أملك القدرة على قوله؟". لم أجب، ظللت محايدة، أقفل الخط، ترك رقم هاتفه.. ورحل.

لا أعرف لماذا بحثت عنك يا "مراد" أهي لحظة حب، أم ضعف، أم اشتياق، أم حنين، أم غباء، أم تلصص، أم إغواء، أم كل هذه الأشياء معا؟ لا أستطيع أن أجيب عن هذه الأسئلة التي تتراقص في ذاكرتي، ربما بحثت عنك كي أفهم بعض الأسرار التي غابت عني، أو تلك التي أخفيتها، أو لربما، هو حنين الضحية لجلادها لتلامس ملامحه الدقيقة في وضح النهار، الجلاد يجيد التنكيل بضحيته قصد الحصول على اعتراف، بينما الضحية تجيد المناورة لتصمد أكثر، الأول يسعى إلى هزيمتك وتدمير طاقة المقاومة والثاني يسعى إلى الصمود كي لا ينهار بسرعة، ومراد هو الجلاد الذي تفنن في خلق

الأعذار، وأنا ببلاهة أصدقها وأعرف انها مجرد مناورة بائسة لكسب مزيد من الوقت.

"مراد بحراوي"، لم يتغير، صار يجيد البكاء والندم، أأصدقه أم أصدق نفسي؟

ظلت الجملة تتراقص في ذاكرتي، كلما فكرت فيها سقطت صريعة الماضي بمذاقاته الكئيبة، مشاعري المتوترة تجزم أن ما قاله مراد مجرد كلام عابر لن يشفيني من ذاكرتي العليلة، بينما جزء صغير مني يغريني لأشهد بكاء جلادي، وهو يتوسلني كي أسامحه، يتوسلني كي ألهب روحه بسوط التأنيب، لا لن أفعل، لن أتقمص دورا لا أتقنه، أنا أحلام التي تغفر كبحر طنجة الوديع. ولأبدو قوية، انتصرت على ترددي، اتصلت به، وبعد حوار بارد مفتعل عن الحال والأحوال، طلب مني أن نلتقي في المكان الأثير لدينا، المكان الذي يختزل ذاكرتنا وذاكرة طنجة، مقهى الحافة الذي تورطت فيه كي أتذكر جيدا ما عشته، وما أعيشه، وما سأعيشه.

موعد اللقاء ظل بعيدا، انتظرته بشغف مشوب بخوف غامض، الخوف من صورة "مراد" التي تغيرت حتما، كما تغيرت ملامح طنجة، وجاء ذاك اليوم يحبو ببطء، تفصلني ساعتان عن جلادي، يفترض أن أستعد، أن أبدو أميرة في حفل تنصيب الملك، سأذهب إلى صالون التجميل لأصقل وجهي وأصفف شعري وأقلم أظافري،

سأحرص على أن أبدو جميلة الجميلات، حسنا سأرتدي قناعا يناسبني حتى أتوجني أميرة حقيقية، تجيد المناورة، بعد عودتي من صالون التجميل، ولجت غرفتي، تأملت وجهي الساحر، ارتديت فستانا أحمر يكشف ذراعي، ولبست حذاء أسود بكعب عال، حملت حقيبتي اليدوية السوداء، زينت معصمي الأيسر بسوار فضي، جمعت شعري من جديد ليناسب فستاني. وإذ أنا أضع اللمسات الأخيرة على قناعي الجديد يرن الهاتف، أتجاهله، أرش عطري المفضل، أخرج من باب العمارة، أتوقف قليلا، عيون المارة تتلصص عليّ، عمدت أن أتمشى قليلا، عبارات غزل فاحش أتلقاها بفرح طفولي، ربما نجحت في إغواء ذكور المدينة، يبدو وكأنني أسير إلى "مراد" مستهدفة قلاعه الحصينة، هل سأدمرها بأنوثتي كما دمرني بذكورته ونحن على شاطئ مارتيل؟

أعرف أني تأخرت كثيرا عن موعدي، تأخر تعمدته لأجس نبض "مراد" الذي جاء يطلب الصفح، أصل إلى باب مقهى الحافة، يستقبلني النادل بابتسامة ماكرة، بينما عيون بعض المرتادين تخترق جسدي، أجيل بعينيّ صوب مقعدي الأثير، أرمق ظل مراد، كان هناك، في جِلسة، كيف أصفها؟ لا أعرف.. أسير إليه، يقف ليصافحني، أبادله التحية ببرود، بينما دبدبات غامضة تسربت إلى جسدي، أحاول أن أوقفها، لاحظ "مراد" توتري فاقترح أن نغير المكان، فرفضت، يعرف أني جئت لأكتشفه من جديد، الأمكنة تتشابه بينما خططنا

للحياة تتغير كل لحظة كما هي أحاسيسنا، خططنا للحياة تنهار متى صدمتنا الأمكنة بصرامتها، ترمينا إلى الهامش لنداوي جراحنا، وحينما نشفى تتوعدنا.

أستمع إليه وهو يستعرض علي بعد كل هذه السنوات اكتشافاته الهائلة: أمريكا منجم ذهب لا ينضب، بإمكانك أن تشتغلي هناك في ظروف جيدة، وتوفري مبلغا محترما، ثم تعودين إلى طنجة لتستثمري أموالك في مشروع ناجح، ستساعدك اليد العاملة الرخيصة. لكي تكوني سيدة أعمال ناجحة عليك فقط أن تفكري كيف تنمين ثروتك، لا تهم الطريقة، أمريكا علمتنا مبدأ مهما: الغاية تبرر الوسيلة، مادامت غايتك واضحة وهدفك محدد، ستجيدين الطرق المؤدية إلى الثروة.

أصغي إليه بإمعان، وأشـــاهده وهو يشيع جنازة مراد اليساري القديم. انتبه لشـــرودي، وأنا أتخيل جنازتـــه، أتخيل المحرقة التي ابتكرها ليعدم الأحلام التي دافعنا عنها، عدت من خيالاتي، تلقفني بســـؤال بارد عن حالي وأحوالي، ابتســـمت بخبث، تجنبت السؤال بكملة واحدة: حالي يشـــبه طنجة، لكني مازلت قادرة على المقاومة ثـــم صمتنا. طالت فترة الصمت، ثم قادني إلى مشـــروعه الفندقي، حدثني عنه بإســـهاب، لمَّح إلي بحاجته الكبيرة إلى مديرة يثق فيها، تساعده على تطوير مشـــروعه، وحينما لم يجد استجابة مني، ظل

يمدح خبراتي التي أجهلها، واقترح أن أشتغل معه، وعبر عن عمق السعادة التي سيحس بها لو أنني قبلت الوظيفة، طلب مني ألا أتسرع في إبداء رأيي في عرضه السخي جدا..

علاقتنا انتهت يوم اختار "مراد" طريقا آخر ليمضي فيه، جئت فقط لأشاهد تاريخا مسكونا بالوجع، جئت لأتابع مسرحية جديدة، اخترت الجمهور كي لا أعيش فصول الصراع. في ذاك المساء عدت إلى منزلي منتشية بانتصاراتي، بينما هاتفي لا يكف عن الرنين، كان هو، أعرف أنه يعيش لحظة قلق، ينتظر إجابتي، وينتظر قبولي، أنا الآن منتصرة، لن أستعمرك، سأدعك لقلقك، لتنم بسلام بعيدا عن جزري الغريقة.

توالت لقاءاتنا، وكلما التقيت به، أحسست بالمرارة تعتصر بطني، وللحظات أشرد، أذكر بقعة دم داكن على سرير بعيد، وأسمع صوت طبيب يستعجل طبيبا آخر يطلب منه أن ينتظر قليلا: "لم يبدأ مفعول المخدر بعد" يقول طبيب التخدير. يستعجله مرة أخرى "لدينا عمليات أخرى. لا تهتم، هذا النوع من البشر لا يتألم". تتكرر هذه الجملة في رأسي عدة مرات. تصطدم بجدران ذاكرتي ككرة مضرب. أتألم. كيف يستطيع إنسان أن يسقط خاصية الألم عن إنسان آخر؟ الكرة التي تقفز داخل رأسي تطلب مني أن أرمي بنفسي من سطح العمارة كي أتخلص من عذابي، لكن قلبي مازال يعزف باسم مراد،

هذه الحقيقة لا أستطيع انكارها على الأقل بيني ونفسي، هل قدر الضحية أن تتعلق بجلادها؟ هل قدري أن أغفر الخطايا التي حفرت أغوارا عميقة في قلبي؟

نقطة ضوء خافت تسكن قلبي، أومضت في روحي لأقبل بحذر وخوف على الحياة، سلمت الشراع لمراد كي نقود سفينة غريقة معا، مضينا في طرقات طنجة نستعيد حلمنا بعقلينا بعدما تخلصنا من حساسية العاطفة، ودون أن أشعر أدمنت اليساري القديم، وأسئلة الماضي مازالت تشوش رؤيتي.

عـدت من الفندق في حدود العاشـرة ليلا، بعدما أنهيت عملي، ودعنـي "مراد" أمام باب الفندق، أخرج إلى شـوارع طنجة التي بالكاد تنهض من سباتها لتستقبل سكان الليل، ألمح فتيات في مقتبل العمر يتمايلن، يصوبن نظرات مغرية صوب سـيارات لا تعيرهن اهتماما، صوت المتشـردين يخترق أذنيّ، ورائحة "الكولا" تزكم أنفي، أنتبه لرجل سـتيني يلمع زجاج نوافذ سـيارة فارهة، أراقب طفلة تبيع الورد لعاشقيْن، تسـاومهما في وردتها الليلية، أصوات شباب تعلو وهم في طريقهم نحو علبة ليلية بحثا عن سعادة مفقودة، متسولة تستجير بالمارة، بائع السجائر المهربة. هو ليل طنجة يغري الحالمين بنزوات عابرة لركوب مغامراته. أحس بدوار عنيف، أرمي ببصري صوب البحر، مازالت الأمواج نفسها تتلذذ بالتهام اليابسة،

وقفت في منتصف الطريــق، تلقفني هواء بارد، أزحت بعضا من همومي وواصلت السير.

وصلت إلى عمارتنا، صعدت الأدراج، أدرت المزلاج، ولجت منزلنا، وأنا مستعدة لاستجواب والدتي كعادتها، سمعت جلبة غير عادية، فتحت النافذة، كان صوت "آدم" يكاد يُخرس ضجيج الشارع، هرولت نحو الباب، وبخفة متزايدة انضممت إلى المتلصصين لأشهد فجيعة "النصراني"، كان الجميع هناك غارقا في دهشته؛ الجيران والعاملون في المحلات المجاورة، كان "النصراني" يصرخ، ويصرخ، ويصرخ، لم أستطع أن أتبين ما كان يقوله، يتكلم بلغة إنجليزية تتخللها كلمات عربية بلكنة إنجليزية، وبلغة عربية تتخللها كلمات إنجليزية معربة. يصرخ بلغتين، وحَّدهما سؤال الهوية، وألم الإقصاء. فالمجتمع المغربي لا يعترف بمغربيته، ولا يعترف بإسلامه. والمجتمع الأمريكي لا يعترف بأمريكيته. لم تطأ قدماه أرض أمريكا يوما، ولا يعرف من اللغة الإنجليزية سوى ما تعلمه في المرحلة الثانوية. وعلى الرغم من ذلك لم يسلم من ألسنة المتلصصين، كلمة النصراني تكبر، تربو، تنتفخ، ثم تدحرجت ككرة ثلج، وفي باب عمارتنا انفجرت، ها هو "آدم" يتجشأ أمامنا الأصوات الناعمة والخشنة التي ظلت تذكره بنقصه، فمهما حاول العيش بسلام تلذغه ألسنة مسعورة تقضم كبرياءه، تصادر حقه في الوجود، صرخات "النصراني" موجعة، ترتفع وكأنها تدين عيون طنجة المتلصصة،

تنغرس في قلبي كخنجر قاتل، شعوري بالذنب تعمق، وإن كنت لا أناديه إلا باسمه، أحسست وكأني تواطأت مع الآخرين لأدين قدرا لم يختره "آدم" بإرادته، "آدم" لم يختر حياته، وخالتي مريم لم تختر مصيرها، وطنجة لا تسامح، تبحث عن الحكايات الناقصة لتبرر تشوهاتها، أستغرب كيف تحولت طنجة من مدينة تؤمن بالاختلاف إلى مدينة تطرد الناقصين. ها هو "آدم" يثور، يحتج، يصرخ، ويقول أشياء غريبة، وعوض أن نصمت ونراجع مواقفنا، ننفيه بإدانة جديدة: أحمق. هدأ قليلا بعد أن أحضر له صامت من الصامتين الملتفين حوله قنينة ماء، وشرب ماء حياديا تحت سماء وليل حياديين، على مرأى من أعين تتظاهر بحياديتها بعدما تورطت في محو وجود "آدم" ولم تغفر له خطأ لم يرتكبه.

هدأ لكن كلامه صار أغرب، حكى قصة سيدنا عيسى عليه السلام وأمه مريم العذراء، وكيف ظلمت طنجة مريم العذراء، ونعتتها بأشنع النعوت، فالله منح أمه اسم مريم ليذكر الناس بقصة مريم العذراء وابنها عيسى كلما لمحوا إلى قصتها مع الأمريكي، ولكنكم لا تفهمون، يصرخ "آدم"، لا تفهمون، يصرخ "النصراني" أنا ابن الله، أنا ابن الله، لا تفهمون، لا تفهمون، لا تفهمون.. أنا آدم ابن الله.

اندهش المتلصصون من جرأة "آدم"، ارتفعت أصواتهم:

- "لا حول ولا قوة إلا باللـه".

- "استغفر اللـه".

- "أعوذ باللـه من غضب اللـه".

- "سامحه اللـه".

- "شفاه اللـه يا خالة مريم"..

تنوعت عبارات المواساة التي كانت توجه إلى الخالة مريم، وهي تبكي، وتلطم، وتصرخ حينا، وتطلب من اللـه أن يفرج كربها حينا.. تطوع بعض الجيران ليتصل بسيارة إسعاف مستشفى "بني ماكدة" للأمراض النفسية والعقلية.. بعد انتظار طويل وسط نظرات الذهول والصراخ جاء أصحاب البدل البيضاء ليقلوا النصراني في سيارة الإسعاف رفقة أمه التي لم تتوقف عن الصراخ. ليقلوه إلى عالم آخر لا يأبه بالأجناس والأعراق والأديان واللغات والحكايات الناقصة، عالم يعزف حكاياه بإيقاعات تختلف عن إيقاعاتنا.

تفرقت جماهير الصامتين بعد أن تحركت سيارة الإسعاف، وسيارة أخرى يقودها إبراهيم صاحب محل البقالة، وبعض الجيران الذين قرروا مساعدة الخالة مريم في محنتها. ذهب كل واحد منا إلى بيته، وفي باله صورة "النصراني" وهو يلوح من النافذة الخلفية لسيارة الإسعاف، وكأنه ذاهب في رحلة.

"ف قلبي جرح قديـم

ياناس آجا ما داواه

ما لقيت حبيـب وما لقيت رحيـم

لا لقيت طبيب يا ناس مخصص ف دواه

صابر نتسنى والصبر غيـرو ما نلقاه

دازت أيام ودازت سنيــن، على هاذ الجرح يا سيادي

ضاعت الأحلام وبكات العيـن، وغاب الفرح يا سيادي

وقلبي مسكيـن ماعندو لين، عايش ف عذابه

صابر للجرح عايش حزيـن، هذا مكتابه

لي صابو جرح ايبالي، ايداويـه قبل ما يكبر

ولي خلاه بحالي، ايقاصي العذاب أو يصبر

الجرح ايزيد ايلا طال، قالوها الناس اللوالة

يصبح علاجو محال، والقلب ضعيـف الحـالة"

كان صوت عبد الهادي بلخياط يأتيني عبر مسجل صوت صغير أهداني إياه جدي. أستمع إلى الأغنية التي تنتشر في خلايا الليل، وأتذكر جرحي القديم، وجراحي الجديدة. كيف تواطأت كل هذه

الأحداث لتشكل لوحة لجراح تفوق لوحات "دالي" سريالية؟ كيف صارت حياتي فجأة أشبه بالروايات وبأفلام السينما؟

"ف قلبي جرح قديم
ياناس آجا ما داواه"

كنت أردد الأغنية، وأتحسس جروح قلبي، وأنظر عبر النافذة إلى ليل المدينة الذي مازال يخبئ في عباءته أشياء لا تستطيع رؤيتها سوى عيون القدر، أفكر في المآسي التي نمت في كياننا، ربما حان الوقت لنحررها، لتحلق وراء سراب الرفيق العربي..

يا الراوي

ظل مشهد آدم وهو يصرخ في الشارع عالقا في ذاكرتي، أحاول فهم ما يعنيه: وأفكر مليا في هذه اللازمة التي تعمر رأسي: "أنا آدم ابن اللـه"، ربما حينما فقد آدم إحساسه بالانتماء إلى مجتمع يطرده وينفيه، تعلق بملكوت اللـه، نسب بنوته إلى رحمته ليشجب المحو الذي يطوله ويبرر انتماءه، لأننا في النهاية حكايات ناقصة يُجهل مصيرُها، بينما أصلها واحد معلوم هو والدنا "آدم" عليه السلام، ومادام كذلك فنحن سواسية في النسب، لا ينقصنا سوى أن نطفئ الأضواء التي نتخيلها لنكتمل، لا ينقصنا سوى حفرة النهاية لنعي موتنا. "آدم" هو الروح التي نفخها اللـه في الإنسان الأول وحمله الأمانة، فلماذا تخون طنجة الأمانة وتزفنا للمجهول؟

ظلت الهواجس تأكلني، وإحساسي بالفجيعة يتعاظم، لهذا لم أتوانَ في زيارة "آدم" ابن خالتي مريم، وخلال زياراتي المتكررة اطّلعت على علبة أسراره التي تحافظ عليها خالتي مريم، علمت السبب المباشر للانهيار الحاد الذي أصاب النصراني، حكت لي الخالة مريم

أن ابنها الأربعيني تعلق بامرأة في الخامسة والعشرين من عمرها، أرملة ولها طفل وديع، تشتغل ممرضة في مستشفى المدينة، تعرف إليها يوم صاحب أمه لتجري فحوصات بالأشعة، حينما التقى بها أول وهلة أيقن أن قلبه قد تعلق بامرأة بيضاء صافية كماء بحر طنجة، بضفيرتها الشقراء الحريرية، وملامحها الطفولية، وابتسامتها الحزينة، وصوتها الناعم، أيقن قلب "آدم" أن هذه الفتاة هي حواء التي لطالما بحث عنها في شوارع طنجة، وبعد لقاءات توالت، تعمق المشترك بينهما، أزهرت القلوب، تفتقت الشواطئ، هي فتحت دولاب حكايتها، روت قصة زوجها الذي اختار أن يغرق في بحر طنجة بحثا عن ضفة مريحة تقيه شر السؤال، الزوج الذي اختارته العائلة، فقد بعد الزواج بشهرين مشروعه التجاري، كان يحملها هذا الفشل الذي لحق تجارته، وينعتها بالبومة صباح مساء، ويلعن يوم النحس الذي جعله يوافق على خطبتها، وفي غفلة منها قرر وحسم، ومن دون أن يودعها ركب سفينة السندباد الشقية، أبحر نحو الأندلس فاتحا جديدا، لكن أحلامه ظلت تتجاذبها نوارس البوغاز، وعوض أن تهنأ بزواجها تحملت مشاق فقدان الزوج الذي يعيلها، واكتشفت أن بطنها بدأت تنتفخ ولا أحد هناك يجلب لها التفاح الأخضر، أو ورق التوت.. ظلت تكابد، وتعاند حتى لحظة المخاض، وبعد الولادة بأسبوعين قررت خوض مغامرة الحياة، قررت أن تشتغل لتعيل طفلها، وكما روت فصول حياتها بعينين دامعتين، حكى "آدم" قصته

بصوت خجول، روى سيرته بنبرة أليمة، وترك لها المسافة لتختار، فاختارت اللحاق به. نار الألم لا يعرف حرارتها سوى القابض على الجمر، ولأن معاناتهما واحدة، اختارا المضي معا بخطى ثابتة نحو مستقبل ملغوم.

تقدم "آدم" إلى خطبة امرأة الحلم، وافق أب العروس على الخطبة من دون شروط، لكن قصة والده الأمريكي التي سمعها من أفواه المدينة جعلته يتراجع عن موافقته، فرفض رفضا قاطعا أن يزف ابنته لنصراني لأن هذا الزواج باطل. أغلق باب الحوار، حاولت الخالة مريم أن تقنع أب الفتاة دون جدوى، توسلت إليه، بكت أمام باب منزله، لكنها لم تجنِ سوى الخيبة، طلبت من فقيه المسجد أن يرافقها ليشهد بإسلام "آدم"، لكن الأب لم يسمع سوى صوت الحكايات الناقصة، وفي الختام تلفظ بما يشبه مدينة طنجة: ابنك لقيط، ابنك لقيط..

انهارت الخالة مريم، عادت تجر الخيبة، تفكر في لحظة الطيش التي أثمرت "آدم"، تلوم وجودها. "آدم" كان مستعدا للفرار رفقة معشوقته إلى وطن آخر يتيح لهما فرصة العيش، لكن الفتاة خافت من العار المفترض الذي سيلحق عائلتها، فقتلت عاطفتها لتحفظ ماء وجه أبيها. بعد هذا الحادث انزوى "آدم" في غرفته، صار يرفض أن يكلم أمه وكأنه يعاقبها. صار ينعزل ولا يريد لقاء أحد.

وفي زياراتي للمستشفى رفقة الخالة مريم، عرفت لماذا تزداد صحة المرضى تدهورا حين يدخلون إلى المستشفى. لمست ذلك بنفسي وأنا أرى المرضى العصبيين، والنفسيين، والعقليين في الجناح نفسه. مريض يجلس وحيدا منعزلا يبتسم لشخص افتراضي. آخر يصيح في سعادة وكأنه يحتفل بفوز فريقه المفضل لكرة القدم، وربما يفعل ذلك لأنه سعيد بهروبه من المستشفى الكبير الذي يدعى المدينة إلى مستشفى أصغر داخل المستشفى الكبير. على الأقل لا يوجد فيه أطفالٌ مشاغبون يمسكون قميصه من الوراء من دون أن يراهم، ويختبئون ليبحث هو عمن لمسه. ويسأل المارة عن اليد التي أمسكته من قميصه، ولا يصدقه أحد. على الأقل هناك، لا وجود لمارة يبدون تعاطفهم بصوت جهوري ليعرف الجميع أنهم إنسانيون. مريض ثالث يجلس على سرير مهمل. يحرك ساقيه كطفل صغير. لحظات قليلة عبرت فيها الممر المؤدي إلى غرفة "النصراني" كانت كافية لأعرف أن هذا المستشفى يختلف عن باقي المستشفيات التي زرتها في حياتي هنا، وعلى عكس المستشفيات الأخرى لا يبكي المرضى من الألم بل يضحكون، ويقهقهون، ويسخرون من تفاهة هذا العالم. إنهم عقلاء بمذاق خاص قلت في نفسي.

تدخل خالتي مريم غرفة "النصراني" أتبعها. تفرغ السلة التي أحضرت فيها بعض المأكولات التي يحبها. ترتبها داخل دولاب صغير وُضِعَ أمام سريره بينما أجلس على طرف السرير. أتأمله

وهو نائم كما لم أتأمله من قبل ألاحظ أنه صار سمينا بعض الشيء، وأن هالات سوداء ارتسمت على جفنيه. ساعات كثيرة مرت كان فيها "النصراني" غائبا تماما عن الوجود. أيعقل أن يحصل كل هذا مع "النصراني" بسبب قصة حب؟ في الحقيقة لست مقتنعة بما تقوله خالتي مريم التي تحاول إقناع نفسها بأن ما حصل معه هو بسبب تلك المرأة التي سكنت قلبه وعقله؛ ما حصل مع "النصراني" أكبر من ذلك بكثير. عرفت ذلك منذ نوبته العصبية الأولى. الرفض هو المشكلة الحقيقية للنصراني قلت في نفسي، وعدت إلى تأمل "النصراني". يستفيق لكنه لا ينبس ببنت شفة. يجول بعينيه قليلا ثم يصوبهما تجاه الباب. أجلس قبالته وكأنني غير مرئية. ما يعنيه النظر إلى باب غرفته وهو مشرع على مصراعيه، يرفض إغلاقه، وفي الوقت نفسه لا يستقبل أحدا ماعدا أنا والخالة مريم وأمي. هذا ما أخبرتني به الخالة مريم التي تضعنا في مرتبة العائلة، خصوصا في ظل غياب عائلة تساندها حين تغلبها الحياة. علاقة القرابة بيننا تعود لتواطئ خفي يجمع أمي والخالة مريم. غياب أب لي وللنصراني جعلهما لا شعوريا يتواطآن؛ صحيح أن أمي لا تكبر "النصراني" كثيرا إلا أنه يناديها بخالتي. لم تخبرني أمي أنها ستزوره اليوم. إذن من ينتظر "النصراني"، لماذا ينظر إلى الباب؟ هل ينتظر شخصا لن يأتيَ؟ أم أنه يتطلع إلى الفرار من سجنه؟

أحضرت الممرضة العشاء: حســـاء، وبيضة مسلوقة، وقطعة

خبز، وكأس ماء. أخذ "النصراني" الملعقة. تناول القليل من الحساء، وقطعة الخبز، وترك البيضة. فتحت خالتي مريم الخزانة. أخرجت علبة شـــكولاتة. ناولتني قطعة، وناولته أخرى. قالت: "الشكولاتة مفيدة، وتريح الأعصاب". تناولتها بسرعة وكأنها حبة أسبرين. فعل "النصراني" الشـــيء نفسه لكن بشكل بطيء. لم أكن أعرف يومها أن قصة جديدة تنتظرني. ابتدأت بحبة شكولاتة. لم أكن أعرف أننا سنتبادل الأدوار. سيصير "النصراني" الزائر. وسأسجن أنا في ذلك السرير الحديدي، وسأطيل النظر إلى الباب المفتوح، وسيتساءل هو من دون أن يثير انتباهي كما كنت أفعل تماما حين أزوره عن سبب تحديقي في الباب. هل أنتظر أحدا؟ لا أجيبه على الرغم من أنني أقرأ السؤال الذي يرتسم في ذهنه في هيئة علامة استفهام كبيرة. لا أجيبه لأن الأدوية تثقل لساني. لا أجيبه لأني لم أعد أنتظر أحدا بعد أن حكى جدي حكايته للمرة الأخيرة وغسلت روحه بماء بادس.

"كنت أشتغل في "تياترو ثرفنطيس"، وتحديدا في شباك التذاكر أو Dispacho debilletes الاسم المكتوب باللون الأسود، يحيط به لون أخضر من كل الجهات، نحت الاسم بعناية على الحائط في إطار نقش بزخرفة متناسقة جميلة..".

يوقف السرد فجأة. يسألني عن "تياترو ثرفنطيس" يعود ليكمل حكايته. يسألني مرة أخرى بمرارة أكبر. يصمت. يمسك بيدي بكلتا

يديه، وكأنه يعاهدني على شيء ما. يغمض عينيه. يطلق سراح يدي. يرفع سبابته اليمنى إلى السماء كما فعل يوم أخبرني أن أبي صار هناك. ويوم مررنا أمام "تياترو ثرفنطيس" وأشار بسبابته اليمنى إلى الكائنات الملتصقة على واجهته، تتحرك شفتاه بسرعة، وتدور سبابته بسرعة أكبر. تسقط يده على السرير. ألمح روحه تحلق خارج غرفته البيضاء، تسقط دمعة لتزف الطائر إلى السماء.

يرتسم السؤال مرة أخرى في ذهن "النصراني"، لا أجيبه لأن الأدوية تثقل لساني وذاكرتي منذ أن دخلت إلى المستشفى، صارت عملية التذكر عملية صعبة ومرهقة. إلا أن الأسئلة تحثني على تذكر كل التفاصيل. كيف صار ما صار مع مراد؟ كيف حولنا جلساتنا من "مقهى الحافة" ومكتب الفندق إلى غرفة في فندقه بعد أن سافرت زوجته رفقة ابنتها؛ لأنها لم تتأقلم مع الحياة بطنجة؟ كيف حدثت كل هذه الأشياء بسرعة؟ أحاول التذكر لكن ذاكرتي مشتتة. أصف للدكتور حالتي. يجيبني بابتسامة خفيفة ترتسم على شفتيه. يطمئنني على حالتي فالأدوية تقوم بدورها جيدا، أحاول مرة أخرى، أشعر بالإرهاق، يغلبني النوم، أنام، أستفيق، أحاول مرة أخرى، لكني لا أرى سوى اللون الأحمر.. أرى بقعة دم على سرير أبيض في عيادة. أسمع صوت طبيب يستعجل طبيب التخدير الذي يطلب منه أن ينتظر قليلا. لم يبدأ مفعول المخدر بعد، يقول طبيب التخدير. يستعجله الطبيب مرة أخرى "لدينا عمليات أخرى لا تهتم هذا

النوع من البشر لا يتألم" لدينا عمليات أخرى لا تهتم هذا النوع من البشر لا يتألم" لدينا عمليات أخرى لا تهتم، هذا النوع من البشر لا يتألم".. تتكرر هذه الجملة عدة مرات. تصطدم بجدران ذاكرتي ككرة مضرب أتألم. أراني في حلقية بباحة الكلية ملتحفة شالي الأحمر. أعود لأتذكر تفاصيل تلك الليلة في فندق "مراد"، يوم ألح عليّ أن أبيت عنده بعدما أوهمني أننا سنصحح الحكاية. أرى جرحا ممددا على السرير، وعلى هيئة أوراق نقدية تركها "مراد" صباح ذلك اليوم قبل أن يسافر إلى "الدار البيضاء" ليستقل طائرته المتجهة إلى أمريكا. هذا ما عرفته يومها حين استيقظت لأجد مبلغا ماليا احتل مكان رأسه على الوسادة. هذا ما عرفته حين سألت موظفة في الفندق عنه، وأخبرتني أنه ترك مهمة تدبير شؤون الفندق إلى أخيه.

أرى الأحمر، لا شيء غير الأحمر،

الشـــ .....ـــــال الأحـــ؟ـــمر

الأحمر الثـــــــ(الثروة)ـــــــــورة

الأحمـــ(الدم)ـــــــيـــــر

الأحمـــ(الأحمر)ـــــــــــــــــ

أمن أجل هؤلاء تركتني يا أبي؟

أمن أجل هؤلاء...

.....

شهور مرت على خروجي من المستشفى. توصلت باتصال من كريم بعد غياب طويل. أخبرني أنه كان يتصل بي كثيرا لكني لم أكن أرد على الهاتف، ولا أرد على الإيميلات. سألني عن صحة جدي، وعن جديدي، وعدته أن أرسل إليه إيميلا به كل التفاصيل. أخبرني أن الحياة في دولة الإمارات جميلة لا ينقصها سوى صديقة مشاغبة مثلي. أخبرني أن اختياره كان صائبا حين وافق على عرض ابن عمه الذي يشتغل بمكتب محاماة هناك. أخبرني أنه قادم من أجل قضاء عطلته السنوية. "سأراك أيتها المشاغبة" كان يقول ويكرر، وهو لا يعلم أن كل شيء تغير. هو لا يعلم أني لم أعد "أحلام" التي ودعته في المطار قبل عام.

"احكي يا الراوي احكي حكاية، مادابيك اتكون رواية،

احكي لي على ناس زمان

احكي لي على ألف ليلة وليلة وعلى لونجة بنت الغولة،

وعلى وليد السلطان

حاجيتك ماجيتك

ودينا بعيد من هاذ الدنيا

حاجيتك ماجيتك

كل واحد منا ف قلبه حكاية

كل واحد منا ف قلبه حكاية

احكي وانسا بلي حنا كبار

في بالك لي رانا صغار وان آمنو كل حكاية

احكي لنا على الـجنة

احكي لنا على الـنار

وعلى الـطير لي عمره ما طار، فهم لنا معنا الـدنيا

حاجيتك ماجيتك

ودينا بعيد من هاذ الـدنيا

حاجيتك ماجيتك

كل واحد منا ف قلبه حكاية

كل واحد منا ف قلبه حكاية

احكي يا الـراوي كيما حكاو لك، ما اتزيد ما اتنقص من عندك،

كاين لي اي شفاو وعلابالك

احكي ونسينا من هاذ الـزمان،

خللينا ف كان يا ماكان، في كان ياماكان

حاجيتك ماجيتك

ودي نا بعيد من هاذ الـدنيا

حاجيتك ماجيتك

كل واحد منا ف قلبه حكاية

كل واحد منا ف قلبه حكاية"

يقول صوت سعاد ماسي عبر المذياع الصغير للمقهى، كؤوس شاي فارغة أمامي لا أعرف متى طلبتها، ولا متى شربتها، وأربع علب من سجائر جيتان، وأوراق كثيرة لا أعرف كيف استطعت ملأها دفعة واحدة، وكيف استطعت هزم الأدوية التي مازالت تثقل لساني وذاكرتي وتضعف تركيزي. "آدم" ينتظرني في البيت لنأكل الشكولاه، ونلعب "البارتشي"، والورق، ونشاهد الأفلام. أحب مجالسته. التواطؤ نفسه الذي حدث بين أمي وأمه حدث بيننا. "آدم" في البيت لابد أنه أمام النافذة ينتظر عودتي، بعدما أخبرته سرا عن الهاجس الذي يسكنني حين قال لي: "لا يمكن أن تكتبي حياة كاملة في يوم واحد". أخبرته أني أخشى أن أنسى التفاصيل. أخبرته أن التأثيرات الجانبية للأدوية قد تفقدني ذاكرتي يوما ما. "آدم" في البيت لابد أنه يتنقل بين الصالون والغرفة، بين الغرفة والحمام، بين الحمام والشرفة، ثم يعود ويجلس، ثم يقوم، ينظر من النافذة لا بد أنه ينتظرني لكن علي أن أقرأ النص مرة أخرى:

قطرات رذاذ واهنة تنزلق على زجاج النافذة، أتابع انعراجاتها المتموجة، وهي ترسم أخاديد في بقايا وجهي المنعكس في زجاج النافذة، أتأمله مليا عساي أقتنص بقايا صور ضبابية عالقة في ذاكرتي الصدئة.. أصحو من سفري في أسئلتي.. خواء يلفني، وضجيج يصافح أذنيّ بعنف. يدي التي لا تطاوعني على مسح تفاصيل وجهي المشتت في زجاج النافذة، ترتجف، ترتعش، هل المحو مخيف إلى حد الألم؟

طنجة 2014

المؤلفة في سطور

نسيمة الراوي

كاتبة مغربية من مواليد 1988، حاصلة على دبلوم الدراسات العلي المتخصصة في التســـويق والتجارة العالمية من المدرسة الوطنيا للتجارة والتســـيير من جامعة عبد المالك السعدي بطنجة. شاركت في عدد مـــن المهرجانات الدولية والعربية: المهرجان الشـــعري العالمي كســـموبويتيكا بقرطبة، والمهرجان الدولي صرخة امرأ بخريـــس دي لا فرونتيرا، وفي ملتقى الشـــعر العربي الأندلســـي بموغير إسبانيا (2015)، وفي ورشة ندوة الجائزة العالمية للروايا العربيـــة (البوكر) بأبوظبي بالإمارات العربيـــة المتحدة (2014) وفي ملتقى الشـــارقة للشـــعر العربي بالشـــارقة الإمارات العربيا المتحدة (2012)، وفي ملتقى شعراء المغرب والمكسيك في طنجا (2015)...، وتوجت بجائزة طنجة الشـــاعرة الدولية (دورة محمد

الميموني وأحمد عبد الســـلام البقالي) (2012)، وتوجت في ملتقى الشـــارقة للشعراء الشباب بالمغرب المنظم من طرف دائرة الثقافة والإعلام بالشارقة وجامعة ابن طفيل المغربية سنة 2012، وجائزة حوار الثقافات للآداب الرباط (2013).

صدر لها:

ديوان "قبل أن تســتيقظ طنجة" في إطار مبادرة أشرف عليها كُل من بيت الشـــعر المغربي بتعاون مع دار النهضة العربية ببيروت، و"خواطري" نصـــوص عن دار إفزارن للنشـــر، طنجة، 2004، و"شغب الكلمات"، نصوص، دار إفزارن للنشر، طنجة، 2007.

البريد الإلكتروني:

raoui.nassima@gmail.com

لم أنتبه إلى بكائي إلا حينما مسح مراد دمعات تزحلقت فوق خدي بأطراف أصابعه، وليس بالمناشف كما تعود أن يفعل. كنت أبكي، وأقضم التفاح، أتحسس أصابعه. وكانت هي تجلس في الكرسي المقابل تقرأ رواية "For Bread Alone" أو "الخبز الحافي" لمحمد شكري. هادئة جدا كأنها في قطار آخر لا ترانا، وكأنها خارج المكان، وخارج الزمن، وخارج المشهد، وخارج الرواية لا تسمع أنين الخبز داخل الرواية، وخارج الرواية في الكرسيين المقابلين لها. أبكي، وأقضم التفاح، أتحسس أصابعه، وكانت هي تجلس في الكرسي المقابل محايدة، تشبه ذلك السارق اللطيف الذي يفرغ محتويات حقيبتك، ويتكرم بإرسال بطاقتك الوطنية، ووثائقك إلى عنوانك البريدي. كانت تتكرم على قلبي الذي سقط بمساحة حرة كي يتدحرج جيدا. أبكي، وأقضم التفاح، وأتحسس أصابعه، أراقب قلبي وهو يتدحرج، يتضاءل ليصير تفاحة فاسدة.